الظالمون بخير

الظالمون بخير

روايـــــة

هانـــي خليفـــة

الظالمـــــون بخـــير

اسم الكاتب: هاني خليفة

تدقيق لغوي: سمية عبدالمنعم

تصميم الغلاف: وجيه أبو عادي

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: 2018 / 23738

Arabiclibrary2017@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

الإهــداء

أبي .. لولا أن الفراق حق لكنَّا من بعدك مفارقين، ولولا أن في الموت رحمة ما طابت لنا الدنيا، أُهديك في قبرك محبة مَن تركته في مهد الصبا لتنعم بأعظم جوار، جوار ربك وهو أرحم الراحمين اشتقت إليك رغم سنواتي القليلة التي أمضيتها في حضنك فهل اشتقت إليّ يا إبراهيم ؟!

جدتي أم عبدالله .. تعلمين يا صاحبة القلب الصافي واليد الطاهرة التي أعطت بلا حدود أنكِ أكثر من أحببت في هذه الحياة، كم اشتقت إلى مزاحي معكِ وكأنّ عمرى توقف قبل العاشرة فصرت كبيراً عند الجميع إلا لديك، كنت هاني المدلل. (في جنان الخلد بإذن الله يا قرة العين) .

أمي .. طالما أنك أول من احتواني وأول من احتملني، أول من قبّلني وأول من قَبِلني، أول من ضحّى لأجلي وأول من دلّني فلا معنى للحب بدونكِ فالحب أوْلى بالحبيب الأول.

أخواي (شريف - وليد) .. رغم أنني الأكبر إلا أنني صغيركما، دللتماني ولم تبخلا، ساندتماني ولم تشغلكما عنى الحياة، دمنا سوياً في رباط إلى يوم الدين.

هاني الصغير.. في ابتسامتك صفاء الحياة وفى قٌبلة من خديك اكتمال الرضا، فاللهم اجعل أيامك كلها طاعة وسترًا ومودة وحبًا يغمرك به الناس.

ابن الوليد المنتظر.. إن كنت بعيداً عن العين إلى حين فلست بعيداً عن القلب، اللهم اجعل في قدومك الفرحة وفى جوارك الطمأنينة وفيك الصلاح والفلاح والبر، اللهم احفظه بحفظك يا من لا تغفل ولا تنام.

إهداء واجب

الكاتب / هشام عيد

كانت "أوراق حلاق" هي صدفة الصدف، عرفتك من خلالها وصرت أخاً أكبر وصديقاً مخلصاً. ولولا أن الله وضعك في طريقي ما كتبت وما أنجزت وما خرج هذا العمل، تقبل خالص مودتي واحترامي وعرفاني بالجميل.

عزيزي القارئ

هذا هو عملي الروائي الأول، أشرُف بكل يدٍ تلقفت هذا الكتاب، وأثمّن كل عينٍ قرأت كلماتي، وأفخر بكل عقلٍ توحد مع فكرتي، وأبتهج بكل روحٍ هامت مع تعبيراتي، فإن أردت أن تشاركني الحُلم وتساعدني في تحقيقه فعليك فضلاً وليس أمراً أن تقرأ كتابي من الألف إلى الياء.

خالص مودتي واحترامي لكل صاحب يد مُدت واقتنت هذا العمل.

هاني خليفة

تنويه هام

جميع الشخصيات والأحداث والأماكن هي نسج لواقع من وحي خيال الكاتب قد يتشابه لديك مع ما قد رأيت في واقعك، إلا أن العمل لا يتضمن أي عمد أو تعمد، فقط هو مجرد اجتهاد من الكاتب للوصول بالقارئ إلى أقصى درجات المصداقية والإيمان بالعمل.

محاكمة

تمضى بنا الأيام نخطوها خطوة تلو خطوة، نرتاد أماكن ونفارق أخرى، ننعم بابتسامة وأحيانًا ترهقنا الدموع، يشتد الوتر فنُسرع أو يرتخى فنخضع، ومع كل هذا التغير يبقى سر الحياة ككهف من قرون ما قبل التاريخ إن رأيته - حتى في أتعس أحلامك -ستقف عاجزاً أمام طلاسمه الوعرة فلا أسرارها مباحة ولا أنت " شامبليون ".

لكن عليك أن تتيقن أن ركيزتي الحياة (الزمان والمكان) هما من ثوابت القدر، وإذا أردت أن تتعلم فعليك أن تُحسن اختيار المعلم واختره كما شئت زمانًا أو مكانًا، لكن اعلم أن المكان أسرع في التأثير واستيعاب الدرس، لا يحتاج إلى زمن طويل، فكن على قدر الطاعة إن لم تطاوعك الأيام وعلى قدر التحمل إن دانت لك الدنيا.

كأي مؤسسة نظامية ترى المحكمة، لكن ما قد يجعلها متفردة إلى حد كبير أنها تقف على عمدان من الصبر وسقف من الشموخ .. جدران، مكاتب وبشر تدير وآخرون يقبلون عليها طمعاً في الحصول على الخدمة، لكن وبشيء من التأمل ستدرك أنها تفردت وانفردت عن باقي المؤسسات فهي قبلة العدل على الأرض، دواء الضعف وداء الظلم، إن سنحت لك الفرصة أن تقضى وقتاً بين أروقة إحدى المحاكم ستدرك معنى أن (يعيش المعلم ويتعلم).

بمجرد أن تُقبل على البوابة الرئيسية وتعبرها فتنظر إلى اليمين ثم اليسار سترى ما لم تكن قد رأيته من قبل من أصناف رواد الحياة، وستدرك

عللاً اعْتُل الناس بها كما لم تدركها من قبل. ولا تنس أن تنظر خلفك لأن بطء القدوم لن يهزم خفة الخروج.

نٌصبت المحكمة واكتظت القاعة بالمكلومين وبمن انتصفت قلوبهم شقين من جٌرح لم يتخيلوه حتى في أتعس أحلامهم، جاءوا للثأر بأيدي القانون، أدركوا أنهم لن يعيدوا من فُقد وأن علة الفراق ستمتطى لوعة الاشتياق، فالجرح غائر كحجر في غيابات الجٌب في صحراء قاحلة لا يعلم متى يواريه التراب، ومع هذا تشبثوا بأضعف الإيمان كما ارتأوا (القصاص العادل).

لاح في أعلى المنصة الحاجب فؤاد بقامة قصيرة ممتلئ البدن، ارتسمت على وجهه الجدية لكنها لم تطغ على بشاشة الطبع، انتصاب قامته لم يزده طولاً لكن الجدية معيار الهيبة -هكذا يرى الناس - دوره المحدد لا يتجاوز ثواني في المشهد لكنه وحده من أُوَكل إليه ضربة البداية ، كم يسعده ذلك ويفتخر به أمام الآخرين خاصة أولئك الذين يرافقونه في المقهى ، لا يحتاج إلى ملقن فالدور محدود الزمن يبدأ وينتهى عند كلمة ... محكمة .

هنا سقط الصمت على رؤوس الحاضرين وذابت الهمهمات مع عرق الشقاء وسمرة الوجوه المحترقة والأيادي الكادحة، دخل أعضاء الهيئة الموقرة وممثل النيابة العامة في هيبة اكتسبوها من هيبة العدالة، استفتح معالى المستشار الجلسة بحمد الله وآية من الذكر الحكيم وأٌلقيت الكلمة إلى ممثل النيابة فألقى خطبة جليلة عميقة في دوافع وآثار الخيانة ونكران الجميل وركل كل معانى الإنسانية بقدم قذرة.

القضية بسيطة، المتهم مُعترف ، الشهود موفورون، انتهت الجلسة بـ:

حكمت المحكمة حضورياً بإحالة أوراق (سيف الأمل كامل عبدالسلام فهمى) إلى فضيله المفتي.

الجميع هتف الله أكبر وتعالت الزغاريد إلا واحداً أُغشى عليه بعد أن بكى دمًا ودموعًا.

كفر العقايمة

أشرقت شمس جديدة على تلك البقعة الهائمة في فسيح من الخضرة وٌولد نهار جديد كأنه الاستثناء، لكنه استثناء دام لسنوات إلى أن نالته أيادٍ باطشة لم يفلح معها أي استجداء.

قد تسمع يوماً عن الجزر وأشباهها لكن أن تراها أو تطأها قدماك فهذا أمر ليس باليسير، مستطيل انسلخ عنه ضلع من أضلاعه الأربعة وحل محله ذاك البيت العتيق من الخلف في الجهة الغربية كأسد عجوز رابض زائف الهيبة وباقي الأضلاع شكلتها المياه الجارية، ترعة السماعنة يميناً وترعة الدبيجية على اليسارويقودهما من الأمام بحر السوق (على حد تعبيرهم) .

قطعة من ريف مصر انعزلت عن غيرها بغير طيب خاطر . حتماً تشبه الكيان ككل في خصال الريف لكن تفرد كفر العقايمة في كونه كشبه جزيرة وفى أشياء أخرى ولم تكن العزلة النسبية سبباً في التفرد فالواهب يمنح ما يشاء لمن يشاء حتى دون أن يبرر أو يعلل .

يبعد الكفر عن أقرب كتلة عمرانية خمسة كيلومترات ،عاش أهله كأهل الريف في هدوء نسبى إلا إذا اقتحم حياتهم طارئ . وظل الكفر لسنوات كجزيرة منذ النشأة تبحث عن ضلعها المفقود .

حينما اتجهت الدولة لإعادة التخطيط إدارياً في الستينيات فأعادت صياغة وهندسة بعض القرى والنجوع والعزب . وعلى ما يبدو أن المهندس المسئول عن إعادة صياغة تلك البقعة كان مغرماً بها أو رغب في مصاهرة

أحد من أهلها ، ولذلك جعل من أكوام منازلها المتهالكة وقتها قرية ومن أطلالها كيانًا إداريًا رغم أنها لا ترقى إلى حد وصفها بـ قرية ... حقا لقد نعمت بتقدير حكومي أكثر مما تستحق، ومما لا يُنكر دور النائب الكبير في هذا الشأن بما له من هيبة وأيادٍ بيضاء قادرة على تحويل التراب إلى بساتين والتقاف الآمال من عالم الخيال إلى حيز التنفيذ .

كفر العقايمة... هكذا عرف الناس تلك البقعة وذلك المستطيل المخلوع من الخلف، حينما تسأل أحداً عن سبب التسمية غالباً ما يحاورك ويناورك ويكتفى بذكر أي أسباب.

ما في الأمر أنه كما كان لهذا الكفر من خصوصية في الموقع فأيضاً تفرد في سبب التسمية ، كفر العقايمة.. لأن نساءه عقمن أن يلدن من الذكور إلا القليل ، فأمام كل ثلاث أو أربع إناث تجد ذكراً واحداً ، إن كنت غريباً قد تستغرب ولكن أهل الكفر تعودوا و اعتادوا وصارت حياتهم تسير على لحن نون النسوة وإن كان العازف لابد أن يكون رجلاً فعند هؤلاء من البشر تقبل الواقع لا يعنى التحايل على شرع أو شريعة.

" أن تدرك العالم من حولك فهذا هو المنطق أما أن يدركك العالم فهذا تفرد وانفراد " .

حينما تأتيك الفرصة أن تلمس وتراً من أوتار الكفر حتماً ستطاردك أفكار متناقضة وتستدعى نبضك أحاسيس يحتار فيها أعاظم المنجمين وقارئو الفناجين، أما إن استمعت إلى اللحن كاملاً فتتقرب منهم بالمصاهرة أو الجوار

النسبي أو حتى في البيع والشراء، فلا تستغرب ولن تستعجب بل ستتوحد مع الفكرة وتصير أنت ذاتك نغمة من أنغام لحنهم الخالد.

حينما دار طاحون الزمن على تراب كفر العقايمة وما شُيد عليه من مبانٍ ومن شبّوا عليه من البشر، بالطبع دهس معالم واخترق الخصوصية المادية للهيكل، ولكن القدر الذي يهدم يستطيع أيضاً أن يحمى ويصون، فأنقذ فُتاتًا من الأصول التي أكل عليها الدهر وشرب، وهكذا اندثرت أشياء وبقت أشلاء وما زالت هناك أطلال تحيا من أشياء الأشياء.

حينما يهاجمك الزمن في معركة فاعلم أنك الخاسر فأنت محدود والدهر ممدود والممدود باقٍ والمحدود يفنى، وطالما أن الخسارة يقين فمكسبك الوحيد هو ألا تخسر كل شيء، والعاقل إن خسر أشياءَ فعليه أن يتعلق في أي انتصار مهما كان رمزياً ، فالإصغاء لنداء العقل واجب.

طاحون الزمن الذى بدّل وطمس وأطاح بالكثير على الرغم من عنفوانه إلا أنه في استراحات المحارب أبقى على شيئين :

أولهما: خصوصية البساطة وحياة الريف الهادئة التي تتجسد ناطقة باسم الحياة وضد المدنية الزائفة.

ثانيهما: ذاك القبر المنعوت بالسرايا الذى يقبع كأسد رابض على مدخل كهف مجهول ، قد يشيخ الأسد ولكن الهيبة أبداً لا تشيخ .

سراي النابلسي ذات الطابقين: السفلى يتسع لأكثر من خمسمائة فرد، وعلى جانب تجد غرفة (ناظر العزبة) وفى الخلف مخزن الغلال ذاك في وقت كان سلسال العلوية يحكم (أسرة محمد على) .

أما الطابق العلوى فيكفيك أن تلمس قدماك أرضيته المشبعة بخشب الباركيه أو أن تشاهد التحف والأنتيكات واللوحات. يكفيك هذا أن تتوحد مع قيمة المكان ولن تعبأ كثيراً بالتراب الذى صار يعانق كل هذا الإبداع اليوم فدوام الحال من درب المحال.

إن نظرت من الخارج ستخطفك البلكونة البحرية خطفة المولعين ، ويكفى أن عذراوات الكفر حينما كان يراودهن الفوارس في أحلام اليقظة أو المنام لا يصفو لهن حلم إلا وهن واقفات أو جالسات في البلكونة البحرية .

الفخامة قد تبهرك ولكنك إن كنت رشيداً حتماً ستتزعج فلكل مقام مقال والواقع أصدق وأرحم من طعنات الخيال .

سرايا النابلسي رغم ما تحمله من آيات الزمن وعِبَر تنطق بها الجدران وفخامة وعبير العتاقة إلا أنها صارت في نهاية الأمر بلا قيمة واقعية لأهالي الكفر. وتمثلت قيمتها فيما بعد كمضيفة يجتمع فيها (المعزون) بعد تكريم من وافاهم الأجل لساعة أو أكثر قليلاً في الغالب فالناس هنا في العقايمة قد يغلب عليهم الإيمان الفطري أحياناً فلكل أجل كتاب .

من أدرك تاريخ تلك الأرض جيداً سيعلم أنها مسرح للمتشابهات، أما المتناقضات فتأتى من طباع البشر . الريف من البحر المتوسط حتى النوبة يسير على لحن ثابت ولكنه لحن ابن زمنه ، حتى وإن اختلفت اللكنات فلا تختلف أساليب الحياة ولا تشذ الأفراح واللكمات ... هكذا كان الريف ومازال.

السنوات العشر الأخيرة في عمر الألفية الثانية كانت حدًا فاصلاً بين أيام الرضا وبين قدر القضاء ، بين أحلام كانت تجد ضالتها في نومة على فراش القناعة وبين أحلام أخرى غُرست في خاصرة أصحابها فصاروا يسابقون الأقدار حتى ينتزعوها من خاصرتهم فيرشقوها في طريق الآخرين، ولا بأس أن يعبروا الطريق على جثث الأحياء من البشر.

حينما يلوح خيط الفجر في السماء معلناً ضربة البداية كان أهل الكفر من الرجال يجتمعون في المسجد الذى يجاور سراي النابلسي، لقد كانوا أحرص على فرض الفجر فيوم الغالبية منهم يبدأ معه ، يذهب الفلاحون بعد الصلاة إلى بيوتهم التي أقيمت على عمدان الصبر وسُقفت بقناعة لا تنتهي ، ورغم أنها كانت من الطوب اللبن إلا أنها تفجرت دفئًا وجدرانها تصلدت بروابط الدم والمودة فصارت فولاذًا يحميهم ولا يخترقه الشيطان مهما كان نابغًا في فنون الغواية .

كم كان عم فتحي نموذجًا أصيلا لفلاحي الزمن الجميل ، بعد عودته من صلاة الفجر يجد زوجته الطيبة في انتظاره وقد أعدت له كومة النار (المنقد) ودست به براد الشاي الصاج الأزرق وألقت على صهوة النار برغيفين من الخبز الصلد (عيش ملدن) فيتلقفه ويغمس به الملح، وكان يترك اللبن لابنه محمد .

كانت تلك اللقيمات بمثابة (التفويلة) إلى أن تذهب الزوجة إليه في وقت الضحى بالإفطار. ولا ينسى الرجل بالطبع أن يشرب "حجرين" معسل قبل ذهابه للحقل (الغيط) فقد كان عم فتحي يزرع فدانين بالإيجار ضمن

وسية النائب، وكان كما وصفه الناس راجل (دوغري) فقد كان منتظماً في سداد الإيجار بدقة ، كان يُعلّم ولده محمد أن الالتزام بالوعود من الإيمان ومن خالف عهداً لا تأتمنه الناس على أموالها ولن تأمنه على أعراضها .

كانت أم كلثوم الزوجة شريكته الأصيلة حتى في استيقاظ الفجر، كانت حياتها تدور في فلك زوجها ومحمد ورفيقة الروح (أم العوانس) ، كانت صابرة احتملت على قَدْر ما قَدَّر الله لها الاحتمال ، مات لها من البنات خمس في وهج طفولتهن وأبقى الله على محمد ، كانت الدموع تغالبها وتغلبها إذا سهت عن أعبائها التي تلهيها، وظلت هكذا إلى اللحظة التي زارهم فيها هيكل وحدثها عن نعمة ألقاها الله بين يديها وأقنعها أن من فقد ولدًا أو بنتًا ولم يصل إلى مرحلة التكليف هذا يكفى أن يصطحب معه أبويه إلى الجنة شرط أن يصبرا ويحتسبا الفقيد لله راضيين مرضيين. وزادها من الوصف (عن قصد) كيف ينتقل هؤلاء المخلدون من القبر إلى الجنة دون حساب فيصيرون كعصافير تجوب الجنة وتتعلق بقناديل العرش ، وزاد شوقها بأن فقيداتها حينما يلقونها سيمسكن بثوبها ولن يتركنها حتى يصحبنها إلى الجنة بإذن العلى وكيف يخلدن على هيئتهن كاللؤلؤ المنثور .

ولما تهلل وجهها زادها شغفًا بأن ما بالها بخمس ! فلعل نصيبها في الجنة خمسة أضعاف غيرها ممن أطاعوا وصبروا واحتسبوا حيث إن اختبارها كان الأصعب بفقدانها لخمس من زهور الدنيا ولآلئ الجنة، ولِمَ لا والله واسع الفضل . تبسم عم فتحي وأردف (يا بختك يا أم كلثوم تستاهلى والله) فرد هيكل: ولك مثلها إن صبرت واحتسبت يا عم فتحي .

منذ ذاك الوقت كانت المخلدات الخمس يأتينها في المنام ويأخذن بيديها إلى بساتين الجنة فيأكلن ويمرحن وتحتضنهن حتى تقر عيناها ويثلج صدرها ، كم كانت صابرة بشوشة هذه المرأة وكم كان هيكل يسعى إلى الخير برجاحة عقله ونقاء قلبه .

لا شك أن الريف في زمن قد فات لم يخلُ من المتعلمين لكنهم كانوا الأقلية وبالذات الجامعيين، وبصفة خاصة في تلك القرى النائية عن مراكز التحضر والمدنية ، ومع أن المتعلم كان فريداً متفرداً يحظى بالتقدير إلا أنه كان متعلمًا بجلابية ، بمعنى أن علمه كان يُسخر لتهذيب وتطوير حياته التي تدب فيها الروح بفعل ذاك الهواء الريفي الذى يتنفسه الآخرون معه، فعقيدة الأرض راسخة ولغتها واحدة ومن سرى العيش الحلال في شرايينه يصعب عليه أن يتمرد أو أن يخون .

إن لازمت البحر في الغسق ستظفر برؤية أسراب الرجال القادمين من الحقل بصحبة البهائم والحمير وبعد صلاة العشاء تُمد أستار الليل الحالك فيخلد الجميع إلى الفراش ولا يُستثنى من القاعدة إلا هيكل ودار أم العوانس.

حينما يهاجم الليل بقعة من الأرض حتماً تستسلم تحت طائلة الاحتلال، الليل أقوى فلديه خفة الفارس إذا امتطى الجواد وانتشاء البطل المظّفر حينما يصافح رجاله ويَلقى شعبه مهنئين.

دار أم العوانس

من بين الفصول الأربعة يبقى الشتاء صاحب التفرد في الأثر والتأثير، فإن تحصنت من لهيب الصيف بملازمتك لبيتك فبرد الشتاء يقفز إليك من ثقوب الجدران، وإن تغزلت في نسمات الخريف العابرة فزمهرير الشتاء يصيب فكيك بالصرير ووجه الربيع الباسم يقابله الشتاء بعبوس الأماني.

في ليلة من ليالي (كيهك) طاردت الأمطار كفر العقايمة فحولته إلى مستنقع استوائي لا يعبره غريب وبالكاد يتعامل معه أصحاب المكان فأهل الكفر أدرى بشعابه . ما أصعب أن ينقض سيل من السماء على قطعة من ريف مصر فلا يكتفى بالتهام البيوت بل يترك جرحاً ينزف لأيام وأيام .

تدفق مريدوها إلى بيتها الذي هو أول بيت تراه عيناك إن حللت ضيفاً على كفر العقايمة .

دار أم العوانس ... الدار قد تكون مصطلحاً مألوفاً لك إن كنت بحراوياً أو سواحلياً أو حتى من قاطني الصعيد . لكن أم العوانس مصطلح عميق وعالم وعر تجسد على هيئة أنثى .

عطيات محمد على الخميسي ... فارق قطار عمرها الستين واقترب من بلوغ محطة السبعين . احتفظت بأسنانها وأنيابها كاملة إلا سِنّة واحدة رغم بلوغها هذا العمر حينما كان يشاكسها أحد بأنها ما زالت تحتفظ بضرس العقل كانت تجيبهم (عقلي على قدي وقدي ملوش قد) .

كانت أنيقة أناقة اصطفاف ثمار (الخس) في أرض يافعة ، وتألقها كشجر الصفصاف يلقى بظله طواعية دون انتظار المقابل ، كانت تعشق ارتداء الجلابية بـ (سوفرة) التى تمتلك منها الكثير. آمنت عطيات أن الأناقة تطغى على التفكير... فالعقل السليم في المظهر السليم .

مخطئ من ظن أن ظاهر الشيخوخة ينال من شباب القلب أو أن اعوجاج الظهر يمحو استقامة الفكر، فالدنيا تستقيم لمن نوى الاستقامة وتعصف بمن باع نفسه للشيطان.

الجواب يبدو من العنوان، والدار كخطاب مجهول المعاني إن أردت أن تستوعبه جيداً فعليك بالتدقيق في كلماته مرة بالاجتزاء وأخرى في سياق عام، هنا تستطيع أن تكوّن فكرة متكاملة عن الجواب والداروست الدار.

كانت دار أم العوانس القِبلة لمريدين اختاروها طواعية فبدت لهم كوعاءين:

أحدهما لسكب الحقائق وعثرات الواقع وشقاء الأيام، والآخر لاستدعاء الضحكات الصاخبة التي تدفع الدماء دفعاً داخل الشرايين فيتغلب بذلك حب البقاء على واقع الشقاء.

دار أم العوانس كانت لها وحدها تعيش فيها بمفردها تكتظ بالناس طوال اليوم ولكن ما إن ينصرف الجميع تبيت لياليها بلا ونيس وإن سألوها عن الوحدة كانت تجيب:

(إنها لم تختر وحدتها ولكن الوحدة تأنس بها).

إن قادتك قدماك إلى الكفر وأشرفت عليه فسر لبضعة أمتار ستنجذب عيناك إلى الجانب الأيمن فتجد قطعتين صغيرتين من الأرض الزراعية يشقهما ممر ترابي تزينت القطعة الأولى بالكرنب والأخرى بالبازلاء، وعلى أطراف القطعتين ينهض البصل والثوم، تتناوب المحاصيل حسب الفصول الملائمة لزراعتها ولكن الأرض راسخة بقدر رسوخ الأمل.

حينما ينتهي الممر تجد نفسك وجهاً لوجه أمام بيت من الطين به طابق ثانٍ يسمى (مقعد)، وإذا قُدر لك وفتحت باب المدخل ومضيت رويداً داخل الدار ستجد يميناً غرفتين وإلى اليسار غرفة الجلوس ثم مطبخًا وحمامًا بلديًا، وبين اليمين واليسار تنتصف الدار على هيئة صالة واسعة تسمى (وسط الدار) وإن أكملت سيرك ستنتهى إلى الباب الخلفي فإن فتحته ستجد فرنًا بلديًا وكانونًا وعشة الفراخ و(معزة سعد) أضف إلى ذلك فسيحًا من الخضرة فللسيدة خمسة أفدنة ورثتهم عن أبيها.

كانت الوحيدة لأبيها لم يدركها يوماً إحساس بالغربة أو الاغتراب بعد أن فقدت الأب والأم في شهرين متتالين فهي نوع من النساء ألبسته الأيام ثوب الصبر وتوجت عنقها بقلادة الاحتمال، كما أن الأقارب في تلك الأيام كانوا سنداً حقيقيًا حتى أن الصغير كان ينعت العم بـ (آبا) فلان.

أيام الحروب التي مرت على مصر ألفت قلوب وهدمت قلوب، اتحد الناس على كلمة وخُلع قلب من فقد أحداً في سبيل الحفاظ على حدود الوطن، فكم جاد الريف بأحياءٍ عند ربهم يُرزقون، كان من بين من فُقدوا ابن عمها الذى خُطبت له منذ طفولتهما، ذهب يذود عن الأرض والعرض فواراه

تراب الأرض مع آخرين، فُجعوا بفقدانه كما فُجعت ولكن تلك العينين السمراوين الصامدتين أبتا أن تزرفا دمعةً واحدة واطمأن قلبها إلى أن القدر قد خط سطر النهاية في حياة زوجية لم يُكتب لها النجاح فوهبت حياتها إلى أشياء رأت أنها أسمى وأحق.

حينما شب هيكل وصار مدركاً للأمور وعرف عطيات وقصّوا عليه قصتها صارينعتها بـ"أم العوانس"، فقد كانت أكبر الآنسات عمراً في الكفر ولما علمت لم تخجل ولم يراودها ألم من ناحيته بل صارت تفتخر بأنها أم العوانس.

رغم ما جادت به السماء في تلك الليلة من أنهار مرسلة، فلم يكن ذلك عائقًا أو حائلًا أمامهم فالعشاق والمريدون لا يحول بينهم وبين عشقهم سوى انقضاء الأجل.

احتشد جمهورها العاشق، جلسوا كما اعتادوا شتاءً في الغرفة القبلية، نعم هي ضيقة ولكنها كرداء (free size)كلما زاد الأحبة ساعتهم واتسعت لهم بفضفاضية المودة.

جلست عطيات الخميسي كعادتها إن اشتد البرد على سرير من الحديد وتحصنت ببطانيتين إحداهما من الصوف الخشن كتلك التي يتحصن بها الجنود في التشكيلات العسكرية وفوقها أخرى ناعمة الملمس قد أهداها إليها أحد أحبتها حينما عاد من الخليج.

سألوها مرة عن سر ترتيب البطانيتين ولماذا لا تتحصن مباشرة بتلك الناعمة الآتية من الخليج فكان جوابها: (الدفا ليا والفشخرة للناس).

إن اشتد البرد سيجبرك على الصمت فتصمت تارة ولكن لا فائدة فالحديث قد يقضى على الزفزفات والتكتكة، فما أجمل هذا البرد الذي وحده يؤلف ويوحد المفترقين رغماً عن أنوفهم.

احتشد الجميع داخل قبلتهم محدودة المساحة ممدودة المشاعر والأحاسيس والأحاديث، هلت بشائر النساء وسيأتي الرجال بعد صلاة العشاء، فمهما كان الظرف طارئاً والحدث مهماً إلا أن النساء لا يُقبلن على متعة أو ترفيه إلا بعد إتمام الواجبات المنزلية التي تنتهي تقريباً عقب تناول وجبة العَشاء بين فرضي المغرب والعِشاء.

"هكذا كان الفلاحون يوم أن كانت الفِلاحة فرضاً وفريضة"

إن اجتمع هؤلاء لا تستفسر عن ضربة البداية فهي قدرة يمتلكها الجميع، ولكن لكل مقام مقال فقد تمتلك قدرة البدايات لكن قد لا تكون محظوظاً في القدرة على التهديف.

سار الحديث على لحن رتيب هادئ الخطى، بدأ العازفون والعازفات (الدندنة) وتريث قائد الأوركسترا (عطيات) في بث الحماس داخلهم حتى تحتفظ بمخزون الحيوية فلم تستعجل إنهاكهم حتى لا تلوح في الأفق نغمات نشاز.

حان الآن للقائد أن يمتطى صهوة الجواد فينطلق رويداً رويداً، فمن بعد الهدوء يأتي الحسم، بادرت عطيات بالحديث:

(ألّا صحيح يا ولاد ربنا كرمنا بالراجل ده ألفين عافية على بدنه رجع للناس أرضها ربنا يطعمه ما يحرمه).

(لا يا مرت عم أومال الغلابة إلى زينا يعملوا إيه ، الملاّك افتروا وطلعونا من الأرض بالعافية إحنا هنشحت قريب وساعتها محدش هينفعنا ولا حتى أنتي يا أم العوانس) .

هكذا رد عطية عليها، على الرغم من أنه ابن عمها وتحبه كما لو كان ولدها وعلى حبه أحبت زوجته هدية وأولاده وابنته الوحيدة أكثر منه، رغم كل هذا إلا أنه كـ (الشريك المخالف) فقد كان يمثل جبهة المعارضة داخل المجلس فحين يسيرون بالحديث يميناً ينتحى هو به نحو اليسار وحينما ينظمون لحناً على نفس الوتر فلن تجد غيره نشازًا، كان عطية دائماً هو أول الحاضرين وأول المغادرين، فالصدام بينه وبينهم بديهي ومألوف وينتهى بأن تناديه أم العوانس بـ (طين البرك) وبعدها (ياخد ديله ف سنانه ويا فكيك) .

هذه المرة هي تعلم أنه قد يكون على صواب والمنطق يصدّق على ما يراه، فأهمية القضايا في المجتمع وحساسيتها وخطورتها محكها الأساسي (لقمة العيش) ولقمة عيش الفلاح محورها الأرض ولا يشغله أكثر من الأرض والعرض، كلمتان امتزجتا في كأس واحدة وصارتا مصطلحين ينتفضان في ذات نفس الشريان فلا تستطيع الفصل بينهما؛ فالأرض عرض والعرض مصان كلما كانت الأرض أكثر سخاءً على صاحبها.

ولأن الفلاحة هي مصدر العيش والمعيشة فكان من أهالي الكفر من يزرع في أرض النائب عبدالسلام ووالده النائب الكبير بنظام (الإيجار السنوي) ومنهم من كان يريد أن يزيد من دخله فكان يزرع في الجهة الأخرى من البحر أراضي مملوكة لأبناء وأحفاد أحد إقطاعيي الملكية وكانوا غالباً يستوطنون

القاهرة والإسكندرية تاركين إدارة الأراضي والتصرف فيها للأستاذ (جبر) المحامي كم كان لصاً هذا الرجل فقد صار يمتلك ثروة لا بأس بها من (قفا) هؤلاء .

قضية المالك والمستأجر التي حُسمت في مطلع التسعينيات كانت انتصاراً للمالك وضربة قاسية قاصمة لظهر المستأجر، هكذا رأى الناس وقتها، كل من الطرفين رأى الانتصار إن كان مالكاً وتجرع مرار الطين وقسوته إن كان مستأجِراً .

في كل بقعة من الأرض تجد معانى ومواقف كثيرة تحتمل التأويل ، فالحق عند البعض قد يكون باطلاً عند آخرين والباطل أحياناً يُزَيَنُ على أنه حق مكتسب ومشروع لدى بعض البشر، وقد يختلط الحق بالباطل وهذه كارثة إلا أن تأتى الرحمة من فوق العرش فيولد من يضع الأمور في نصابها الصحيح إلى أن يتحقق العدل .

كانت أم العوانس تمتلك فلسفة كافية لإدراك الأمور ، فلسفة تشبعت بها مع الجذور من طين الأرض ، عمرها من عمر أشجار (الكازورين) على ضفاف الترع ، اعتدلت قليلاً وهيأت نفسها كي تبدأ المحاضرة ، بالفعل هي تجيد فن الخطابة والإقناع بما تمتلكه من أسلحة فكرية وقدرات عقلية ميزتها عن الكثيرين ، ويبدو أن هجوم عطية قد جلب لبدنها شعوراً بالبرد رغم أنه كان قد هدأ بتكدس الغرفة بالمريدين .

لقد تأخر سعد إخصائي إعداد (المنقد) ذلك الإناء من الصاج الذى تُجمع فيه الأخشاب أو (الكوالح) بغرض التدفئة وإعداد الشاي ، التفتت إلى الشباك الوحيد في الغرفة عن يمينها وصرخت في سعد بهدف استعجاله.

واد يا سعد أنت بتوّلِد الجاموسة !!!

خلاص يا ستي خلصت جاي أهو...

أتى سعد يسير على عَجل يحمل (المنقد) الذى تراخت نيرانه المشتعلة وصار كتلة من الجمر الذى لا يرهق العين .

كانت سعدية وهدية قد أعدتا عُدة الشاي في انتظار المنقد ، وحين أتى سعد أخذ شوقي براد الشاي الصاج وأرقده في المنقد بسلام .

في البرد القارس التدفئة تُسكّن المشاعر وتهدئ من لهيبها ، وشاي المنقد يجعل الأفكار أكثر ترتيباً وقد يولد الاشتياق مع أول رشفة من كوب الشاي، ومع سريان شعاع التدفئة في الأوصال التفتت إليهم شارحة بعد الاستهلال .

كانت عطيات بخبرة الطين وبعقلية المبدعين ترى أن للقضية وجهين من الظلم على كليهما (المالك والمستأجر) ولكنها ببساطة رأت أن الحق أحق، فالأرض لمالكها فالمالك أصل والمستأجر عرض زائل ، فالورق وإن تساقط فالجذور تبقى والشعوب وإن فنت فالأرض أبقى .

حديثها يسري فيهم كمدمن القهوة إن تناول رشفات متتالية من أول كوب منه في يوم جديد أو بعد الإفطار مباشرة في رمضان ، صوتها يتنقل بين الهدوء والانفعال ، نعم فهي تتمكن من ملكات الخطابة ، وانتفخت أحبالها

الصوتية حد الشجار (وبأمارة إيه وفى شرع مين المستأجر ياخد نص الأرض ! هي كانت أرض إللى جابوه !!!) .

لقد كان تقليداً بقوة الإجبار وعرفاً نافذاً ، فإن أراد المالك البيع فعليه أن يتنازل عن نصف الأرض للمستأجر وإن اشتراها المستأجر فعليه فقط أن يدفع نصف ثمنها . البشر أحياناً يصبغون الظلم بلون العدالة البرّاق.

كان صراعاً أحياناً لطيفاً بين كلاهما (المالك والمستأجر) إن كان الأول يمتلك طيناً يكفيه ويفيض أما إن درات الحياة دورتها ووصلت به إلى حد العوز بُغية اكمال تعليم الأولاد أو تزويجهم أو إن كان قد شابه أى مكروه كان عليه أن يستسلم ويرضح لقلة حيلته فى إخراج المستأجر من الأرض ومع توالى الصراعات نشأت عداوات واستشرت وتوارثها الخَلَف وخَلَف الخلف ولكن لتعلم أن ليس كل الملاك أنقياء ولا كل المستأجرين أتقياء .

ويذكر أنه كان من الملاك حينما عاد إليهم حق التصرف في أراضيهم أن أطاحوا بالمزارعين رغم رغبة الطرف الثاني في الاستمرار في البقاء في الأرض وفقاُ لما يراه صاحب الملك ،ولكن يبدو أنه كانت هناك رغبة ملحة في الانتقام ممن حرموهم من أراضيهم لسنوات طويلة ... ربما .

إن تركت الهر جائعاً فلا تستغرب إن استحدث مخالبه

هدأ الخطيب بعد إجهاد فألقت بظهرها إلى خلفية السرير لعلها استراحة محارب، هنا انتفخت أوردة عطية والتفت عروق رقبته على بعضها رافضاً حجج ودوافع أم العوانس ولمّا فارت دماؤه رد عليها :

(آه ياختي ما أنتى صاحبة ملك)

لازم فوران عروقه فوران الشاي، قهقهت عطيات (صب لعطية كوباية شاي يا شوقي) .

إن كان قد قُدرلك أن تلازم فلاحاً من فلاحي الزمن الجميل ستدرك أن الأرض السواد لا تضن بالخضارعلى أحد ، والوجه الذى يفور غيظاً حيناً لا يضن على صاحبه بالبهجة أحياناً أخرى وبأسرع مما تتخيل .

مرت ساعتان بين جد وهزل ، أمسية تسير على لحن المودة تارة والمشاكسة تارة أخرى ، والعازفون لحنهم ينتقل من بين لحظات البهجة وآهات النايات ، لحن إن ضحك ضحكوا وإن ابتأس تبلدوا وتذمروا ، ولا بأس فالحياة متعتها في تقلباتها ولذتها في مطباتها.

عُرف عن شوقي أنه (أبو الشاي)، عطيات بنت خالته تحبه كما لو كانت أمه فهي تكبره بأكثر من عشرين عام وهو يبادلها نفس المحبة ولا يعصي لها أمراً ، شوقي الذكر الوحيد على سبع بنات ، يحتسى الكوب الثالث حينما يشرب الجميع مرة واحدة ، حينما اختارت له المرحومة أمه - سعدية - كي يتزوجها كان شرطه الوحيد أن تُجيد عمل (كوباية شاي ألسطة تشعشع في النافوخ) .

توجه شوقي بالحديث نحو هدية : (بت يا هدية هو صحيح مرات عم إبرآم ولدت النهارده ؟) ابتسم ثغرها ودبت الدموية في وجهها الممتلئ مع لمعان عينيها:

(أيوه ربنا عطاهم جورج) حمدوا الله على فضله وكرمه ولكن كونه ذكراً هذا أسكنهم سكون المرأة في لحظه النفاث .

الخطيب الألمعي هو من يقلّب الحوار كما يحب ويراوغ كأمكر الثعالب فيخطف اللحظة ويتصدر المشهد ويهدم المشاهدين والمستمعين ويبنيهم في لحظات متتالية دون فواصل لالتقاط الأنفاس .

عطيات لـ سعد : شوفت عمك هيكل انهارده يا واد يا سعد ؟ ... لا يا ستي. إن ذُكر اسم (هيكل) ترتعد أوصال عطية (ويركبه ٦٠ عفريت) فإن كان للناس أشباح فشبح عطية الوحيد هو هيكل .

قهقهوا جميعاً؛ فمجرد ذكر عطية وهيكل معاً يكفى لاستدعاء الضحكات، ما إن اجتمع كلاهما فلا يتركه هيكل قبل أن يجعله كالمسخ من فرط الاستهزاء ، لا يمل من معايرته بهوايته القديمة في وهج الشباب حينما كان يلهث وراء الفتيات في مواسم الزرع والحصاد ، كم من مرة أُبرح فيها ضرباً لتحرشه بالفتيات حتى لقبوه بـ (عطيه السطَّاط) حينما طفح كيل أبيه أسرع بتزويجه فالزواج خير دواء لداء أصابه في شهوة الشباب.

اسم على مسمى ، كانت هدية زوجته ومنحة السماء إلى عاصٍ أراد التوبة ، صار عطيه أباً لثلاثة من البنين وبنت واحدة ، بدا له أن ذكوره الثلاثة مكافأة من الله على توبته ، اقتطع من قوته بعض النقود كفارة سنوية عن دناسة الماضي وحتى يزيل عن ابنته الوحيدة بلاءً يخشاه .

تغير حاله تاب الله عليه، ولكن هيكل لم تقنعه توبته رغم أنه أخلص فيها .

في ذروه القهقهة فلت لسان هدية (شوفت الشبح يا سعد !!!) هاج فيها سباباً فبادلوه السباب بتعالي القهقهات، همّ واقفاً (صحيح بلد نسوان)

(بلد من غير نسوان بلد مالهاش عنوان)... يا طين البرك بعدها خد ديله في سنانه وخرج ساخطاً ، لكنه حتماً سيعود .

(ألّا صحيح يا خالة هو مين بيخوّف أكتر هيكل دلوقتى واللا سحلول على أيامكم) كان هذا طلباً ملحاً لسعدية من أم العوانس في أوقات كثيرة حتى أنهم كانوا يلقبونها بـ (أم سحلول) وعلى النقيض من غالبيتهم كانت سعدية رقيقة المشاعر هشة في تقبل المزاح فبمجرد أن يناديها أحدهم بأم سحلول كانت تفر من مقلتيها دمعتان تخففان من حدة الشعور بالخجل .

(بس يا جحش أنت وهو وهى خلاص يا بت يا سعدية ضربة في بطنك) تنفس ثغرها الصعداء وشهقت كلمات أم العوانس ثم زفرت ابتسامة أعادتها إلى ما كانت عليه قبل أن تطلب من عطيات كما اعتادت أن تحكى لها عن سحلول، فأردفت أم العوانس :

إن هناك فارقًا كبيرًا بين سحلول وهيكل ، سحلول عندما حل إلى الكفر كان في سن العشرينيات وكان مجذوباً من الألف إلى الياء، ظل أياماً يبيت لياليه في المسجد حتى غمره النائب الكبير بعطفه وأقام له غرفة من الطوب اللبن وبها حمام بلدى (معتبر) أُقيمت في يوم وليلة ومضت السنون وصار أيقونة الكفر حتى أن البعض كغالبية البسطاء جعلوه نبعاً ينهلون منه صكوك البركة، فكلما أغدق أحد عليه بطعام أو شراب طالته البركة (هكذا ظنوا) ويكفى الواحد منهم أن يدعو له سحلول بلكنته المكسورة وتأتأة لسانه (الله يسهلك) كأنما ضمن رزقه وسعادته، هكذا الناس لا يميزون أحياناً بين السبب وخالق السبب .

وأكملت (لكن هيكل يا ولاد عاقل وكُمّل وقلبه كبير فهمتوا يا بقر) قهقهوا وتعالت الضحكات ورشف شوقي رشفتين من كوب الشاي الخامس .

مخطئ من ظن أن الإرهاق لا يأتي إلا من العناء فقط ، حتى اللحظات الجميلة لها حدود قصوى بعدها يدب الإرهاق إلى العقول والأبدان ، فلكل شعور منتهى ولكل ضحكة نهاية .

سكنت الضحكات إلى إشعار آخر ومُد بساط الحوار في نواحٍ متعددة، إذا اجتمع نفر من أهل الكفر قد يتحدثون أو يتهامسون أو يتسامرون في أمور كثيره لكنهم لا يملّون ولا يتوانون عن ذكر (عبد السلام كامل) نائب الدائرة التي ينتمى إليها الكفر، ذاك المصباح الذى يمتلك قلباً يضئ للجميع ، وخلقاً يجعل من الفقير غنياً ومن الصغير كبيراً ، نجل النائب الأول كامل عبد السلام ، صاحب الثروة والثراء وصاحب سرايا النابلسي التي قد اشتراها من مالكها الأصلي ابن النابلسي باشا أحد إقطاعي الملكية .

لقد كان من المنطقي ألا تخلو جلسات الناس جميعاً في الكفر من ذكر النائبين الصغير والكبير؛ لقد كانا ظاهرتين اجتماعيتين على الأقل بالنسبة لأهلهم في هذا الكفر فلولاهما ما ذُكرت تلك البقعة على لسان أحد من خارجها وِلمَ لا وكرسي البرلمان يسكنها منذ الملكية التي زالت ولكن الكرسي لم يتزحزح حتى وقت الحادث المفجع .

أعانا الناس على قضاء احتياجاتهم وكانا سبباً في سترهم وستر أبنائهم وزوجاتهم بالفعل، لم يمطرا النقود فوق رؤوسهم ولكنهما لم يتركا أحداً يعرف معنى ذل الحاجة؛ فمن فقد جاموسة (ارتبط رزقه وأهل بيته بها)

عوّضهم عنها بأخرى، ومن فسد محصوله بسبب انتشار آفة سد عنه ما تكبده من خسارة، ومن حُرق بيته في لهيب الصيف أعانه على ترميمه أو حتى بنائه من جديد، ومن احتاج إلى ثمن الدواء داواه حتى يكتب الله له الشفاء .

ارتشف شوقي رشفة كأنها صوت البوق، واستدار إلى عطيات :

بيتهيألي إن هيكل وأمه لو مش جناب النائب الكبير كانت كلتهم كلاب السكك !

(رزقهم يا شوقي ربنا ما بينساش عبيده ما بالك باليتيم)

(ألا صحيح يا خالة إنتى كنتي ما بتحبيش لطيفة أم هيكل ليه ؟)

تساءلت هدية بابتسامة فوخزتها سعدية .. إيه يا بت يا سعدية أمي هي إللى كانت بتقول كده .

نال وجه أم العوانس قليل من العبوس ودافعت سريعاً عن نفسها بأنها لم تكن تكرهها أو تغار منها كما ادعى الناس، لكنها لم تستطع أن تحبها كما أحبها الجميع، وأقسمت أنها لا تعرف لماذا وأنهت دفاعها بـ الله يرحمها بقى كانت محزقة وملزقة أستغفر الله العظيم ما عدش يجوز عليها إلا الرحمة .

كان النائب الصغير(عبدالسلام) من الحكمة أن أدرك أن حب الناس وقود لا ينفد ومكسب في الدارين الدنيا والآخرة . شاطرهم الأحزان مشاطرة الأخوة وجاملهم في أفراحهم بما يليق بكبير الكفر والدائرة من تعثر في سداد الإيجار يمهله ومن أصيب محصوله بآفة وقف إلى جواره. كان ذكياً ولم يخنه ذكاؤه إلا حينما استأمن الأستاذ (جبر) بعد أن صار محامياً وتسلق على أكتافه حتى باعه وألقى بشباك غدره على آخرين .

من عجائب البشر أن ترى الخير والشر ينبعان من شريان واحد والحلو والمر في نفس الإناء .

النائب الكبير (كامل عبدالسلام فهمى) كان له ولدان، فإلى جانب الأكبر الذى أسماه (عبدالسلام) تخليداً لاسم أبيه كان هناك الأصغر وكان ذا نصيب أوفر في الاسم، فقد كان اسمه مركبًا (سيف الأمل) التحق بالجامعة في القاهرة ومنذ ذاك الحين ندهته العاصمة وصار جزءاً من فخامتها، ندهته فلبى النداء ، تمرد على واقع أبيه وأخيه الأكبر، آمن بأن المال إذا وُّهب للإنسان فعليه أن يحيا في مكان على قدر حجم المال ، من يعرفونه من أهل الكفر إن ذكر اسمه يستغربون كيف يكون لمصباحهم الوضّاء أخ في مثل سماجته وكآبته، وكيف لثدي واحد أن يرضع حملًا وذئبًا معاً ، كيف لنفس الحليب أن يرتوى به العدل والظلم بقطرات منتظمة .

ذهب سيف الأمل ولم يظهر في الكفر بعد تخرجه في الجامعة إلا ليلة (حنته) ويوم وفاة أمه .

أحياناً يبدو العمر كله لحظة وينتهى بأسرع مما تتخيل ، اقترب الليل من الانتصاف وجاء وقت الانصراف ومهما طالت أيادي الظلم فلابد عن يوم ثأرٍ وإنصاف .

همّ الجميع وودعوا أم العوانس وودعتهم وكما كل ليلة اطمأنت أن (سعداً) قد أوى بمعزته إلى الداخل (الزريبة) وترك أمامها عشباً وماءً يكفيها ليلتها ، سار سعد مع الرفاق قاصدين بيوتهم وهو قاصد بيت (عباس) .

مِعزة سعد

الثمانينيات كانت حلقة الوصل التي عبرت عليها البشرية من دنيا الخضوع إلى دنيا اللارجوع ، الفرصة الأخيرة لمن أراد اللحاق بركب سيطول ويطول ، من فاته قطار الثمانينيات دون أن يكون له مقعد فعليه الانتظار إلى ما شاء الله .

ريف الثمانينيات احتفظ بثوابت الستينيات ، فرغم تحسن الأحوال نسبياً نتيجة الانفتاح على دول الخليج إلا أن الأغنياء ظلوا نُدر والمستأجرين كُثُر ، الأرض خيرها يعم وما تجود به يرُم ، القناعة بالقوة تحكم والإيثار بين الناس حاكم .

في مطلع الثمانينيات وفى ليلة خريفية مشرقة كان الكفر على موعد مع لحظة من لحظات السعادة ، انتهى جمع القطن وتم توريده إلى (المجمّع) وقبض عم فتحي الإيراد، واليوم فرح محمد وسهير، هكذا كان الفلاحون يرجئون الأفراح إلى (الإيراد) .

عُقد القران بعد صلاة العصر بعد التنويه في مكبر الصوت الخاص بالمسجد قبلها بيوم واحد ، بعدها انطلق المعازيم إلى دار عم فتحي حيث كان على غير عادة الغالبية العظمى من البسطاء من الفلاحين (دابح عجل) ، بالتأكيد لم يكن الرجل يمتلك كل هذه القدرة، لكن أم العوانس كانت قد ربت عجلًا قبلها بعام من أجل هذه الليلة لتقديمه كـ (نقطة) لابن صديقتها ورفيقة روحها (أم كلثوم) في يوم زفافه وأتت بطباخ من الزقازيق .

كم كان العجل سميناً بما يليق بمحبة عطيات لأم كلثوم في شخص ولدها، وكم كانت عطيات تؤثرها على الجميع ، لم تبخل عليها يوماً بمال أو مودة وعلى حد قولها لها (الناس كلها في كفة وأنت صاحبتى الكافية) .

عجل وطباخ تكلفا وقتها أكثر من ألفى جنيه كانت تكفي لشراء ثلاثة قراريط من الطين ، لكن أم العوانس لم تعبأ بثرثرة الفلاحين عن التكلفة ، كل ما شغل بالها أن تصون ود ومحبة (عضم التربة)..هكذا رأت .

في جلسات أم العوانس كان عطية يتفاخر بأنه دخل ثلاث (سفرات) والتهم طعاماً يكفيه ثلاث سنوات .. بالهنا والشفا يا طين البرك .

في عهد مضى كانت الأرض بالنسبة لزارعها وإن كان مستأجراً هي مصدر الحياة، والحفاظ عليها ما هو إلا حفاظ على حياته في شكل القوت، فكلما زاد الجهد بين حدودها التي ارتسمت وأُثبتت قانونياً بشرائح من الحديد أعطت، فمن كَثُر عرقه زاد مرقه ... هذا ما كان حينما كانت الفِلاحة رئتي الاقتصاد .

قبل بدء زراعة محصول جديد كان على الفلاح أن يترك الأرض تلقف أنفاسها بعد ولادة متعثرة ومخاض كان من شأنه أن يهلهل عافيتها، فليدعها إذن تستعيد لياقتها باستنشاق معقول لأشعة الشمس ولا بأس من دعمها بالسماد البلدي وبعض الكيماويات اللازمة لتعويض ما استُهلك من قوتها في مخاضها الأخير... لا بأس .

ارحم تُرحَم وقدّم تجد

كانت الزرائب تلعب أكثر من دور في حياة الفلاح الاقتصادية ، فالحيوانات تجود بالألبان والجبن والزبد والسمن البلدي فيستفيد من ثمنها في عبور أعباء الحياة، وما إن بيعت وفرت له المال الذى يزوج به ابناً أو ابنة أو يشترى غيرها بل وقد يزيد عليها ، كان أيضاً روثها شرياناً إضافياً يُضَخ في الأرض بما يعوّض ويلات المخاض الأخير .

كان الأطفال منذ عمر الابتدائية يُحمّلون الحمير بأكياس من الخيش تُمد على ظهرها (الغبيط) تمتلىء بما جادت به الزرائب ويلقون بهذا السماد الحيوي باستراتيجية محسوبة في الحقل بمسافات منتظمة ويظلون هكذا لساعات فى عدة أيام فلا ضنت الزرائب يوماً ولا تمنّعت الأرض عما جادت به الزرائب عليها ، فكلاهما خُلق في وصال لم تنقطع حبائله إلا بأيدي العابثين والغافلين من البشر.

في عامه الأخير في المدرسة الابتدائية وقبل أن يتركها بلا رجعة وذات يوم كان محمد يسير وراء حماره المحمل بروث جاموستهم التي اشتراها والده بشراكة مع جار له لكل منهما النصف في كل شيء لبنها ، روثها ، خيرها وشرها إن ساءها أي مكروه إلى أن تُباع فيحصل كل منهما على نصف الثمن .

كان الطفل ذو الأعوام التسعة يهوى الفلاحة، يجد ذاته ومتعته فوق طين الأرض وبين حدودها، وزاد من كرهه للمدرسة الأستاذ رجب ذاك البدين صاحب الوجنتين اللتين ابتلعتا عينيه ، مدرس الحساب الذى أدمن (مد) محمد يوماً بعد يوم كان غليظ الطلة غادرت وجهه الابتسامة بلا عودة ، يعشق أكل ساندويتشات الطعمية في الفصل، يبدو أنه كان يتقوّت كي يتفنن في (مد)

محمد وغيره من التلاميذ مرة على الباب وأخرى يمسك فيها بالتلميذ بيسراه في حضن أشبه بحضن الأبوة في الظاهر وكان يسلخ بيمينه وبعد السلخ كان لا يعبأ بتجفيف عرقه بل كان يبصق حتى أن الفصل صار مستودعًا للبصق ... كم كان مقرفًا الأستاذ رجب .

محمد وهو في رحلة السعي ونقل الروث كان يعشق السير وراء حماره بجانب البحر وليس إلى الناحية الأخرى بجوار الأراضي ، كان ينتشى انتشاء القادة المظفرين في ذهابه وعودته ، في تلك المرة كان كعادته يدندن ترنيمات فلكلورية كان يحفظها عن والدته ومن الأفراح فإذا بحماره وبدون قصد يصدم فتاة تحمل صينية الغداء التي تذهب بها لوالدها ومن يعاونونه في الحقل ... كانت سهير.

رغم بلوغ الناس الثمانينيات إلا أنه كلما ابتعدت بقطعة من الريف بعيداً عن مراكز التحضر والتمدن تجد أهلها قابضين على موروثات قد أكل عليها الدهر وشرب، فقد أدرك البعض أن الأنثى أنثى بطبيعتها وغسيلها وكنسها وطبيخها ومساعدة زوج المستقبل في أعمال الحقل، أما التعليم فهو كرجس من عمل الشيطان ... لم تلتحق سهير بالمدرسة من الأساس .

هرع إليها، سبّ الحمار بأمه وأبيه وسالف أجداده، أعاد ترتيب الصينية من كل شيء إلا الطبيخ فقد سُكب ، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها فهو يعرفها على الأقل لأنها في نفس عمره لكن القدر وحده القادر أن يبصرك بما لم تره من قبل وأنت معصب العينين وكفيل أن يعمى قلبك عن أشياء أدمنت رؤيتها .

كُتب عقد الهيام في لحظة والتقيا قليلاً وفارقا في لحظة فصار عشقهما لسنوات يصير على لحن الرهبنة من بعيد إلى بعيد، حتى حان اليوم الذى خطبها له أبوه وجاء زفافهما بعد عام حينما جمع والده الإيراد .

كان يتيماً ، فقد فارقت أم كلثوم الحياة وهو في الحادية عشرة، عاش فتحي واهباً له ما تبقى من العمر كان رجلاً (عفياً) حيث استطاع أن يؤدى دور الأم إلى جانب دوره كأب ، كان صاحب نفس في محشى الكانون كأمهر سيدة إلا أنه دائماً كان يقول عن طشته للملوخية أنها (طشة خناشيرى) .

اليوم هو زفاف محمد وسهير، عُقد القران بالمسجد القريب من سراي النابلسي ، صافح العريس كل من في المسجد بيديه التي انغمس بالأمس كفاها بالحناء ، وذهب الجميع إلى بيت عم فتحي فالعجل ينتظره الجميع منذ شهور، وذهب العريس إلى جانب الدار حيث جلست النساء في دائرة أكملها العروسان جالسين على كرسيين (فوتيه) من كراسي السرايا والكرسيان استقرا أعلى كنبتين (إسطنبولي) الواحدة فوق الأخرى ومن خلفهما مفرش عريض كان قد أَهْدى إلى أم العوانس من السعودية مثبت عليه سعفتين من نخيل تلامس طرفاها من أعلاها .

صار الفرح قائماً من بعد صلاة العصر حتى بلوغ صلاة المغرب ، الرجال يأكلون أولاً ثم تبعتهم النساء اللاتي تفرغن أولاً لإحياء ليلة العروسين قادتهن نبيهة دلالة الكفر وصاحبة العصمة في الإمساك بالطبلة والدق عليها بكفاءة لم يصل إليها غيرها من نسوة الكفر.

راقت الحياة لمحمد وسهير وقبل أن يتم زواجهما الشهر العاشر كان سعد قد حل إلى دنياهما فصار صانع البهجة لأبويه ولجده فتحي .

من أحب الناس لوجه الله واشتعل قلبه شغفاً بهم وعشقاً لهم سيسرى هذا الشغف والحب في السلسال ، فالحب والرحمة كاللقمة الحلال مهما رق الحال فهي أبداً لا تنقطع .

لُقنت أم العوانس محبة الصغير تلقيناً كأنها فُطرت على ذلك ، حينما رأت الصغير لأول مرة ألقت عليه مائة جنيه نقطة وتكفلت بملبّس وحلويات السبوع ، كم كان سعد محظوظاً برفيقة جدته ، بعد أن تخطى شهوره الثلاثة الأولى أجبرتهم محبتها على أن يذهبوا إليها كل يوم بسعد ولو لدقائق قليلة ، لا شك أن من جاور سعداً يسعد .

ذات يوم حينما حل الغسق كان محمد وسهير عائدين من (الغيط) يجرّان أمامهما جاموسة (عشار) ويسيران بموازاة البحر. كان ذاك الوقت أنسب الأوقات لاستعادة تلك الذكريات التي كان البحر شريكهما فيها. فهنا دب حبها في قلبه وهنا اختاره قلبها بلغة لم تكن تعيها. ولكن تأليف القلوب لا يحتاج إلى لغات. فقط يكفيه اندفاع الذبذبات وسهد طوال الليل يطول حتى تغمض العيون وتغلق الجفون وعلى الأحلام البقية .

كانا يسيران في حالة من الرضا والابتسام فلا مجال في تلك اللحظات بينهما لاستدعاء آلام لا يخلو منها بشر. فقط كانت تلك اللحظات أنسب وقت لاستدعاء كل ما ينعش القلب ويثلج الصدر. وفى أثناء سيرهما إذ بجرار يقوده أحد يندفع في اتجاههما بسرعة من حارة بتقاطع البحر أراد الرجل أن يفادى

الجاموسة فصدم محمد وسهير وألقى بهما إلى البحر الذى يتجاوز عمقه أكثر من ثلاثة أمتار، لكن الأقسى أنهما لا يدركان السباحة ، دقيقة أو اثنتين وابتلعهما البحر ولفظهما قتيلين .

اقترب سعد من إتمام عامه الأول وصار يتيماً من الألف إلى الياء ، بقى في كنف الجد ومُدت إليه أثداء الرحمة فتقبل منها القليل ولكنه ارتوى من خالته سماسم حق الارتواء...شهور قليلة ومات عم فتحي .

ما بين الفرح والهم خيط رفيع قد ينقلك من هنا إلى هناك دون أن تشعر ، القدر يقلّبك كما يشاء فكن فطناً ولا تسبح ضد التيار فلا أنت على قدر مجابهته ، ولا هو سيمنحك رفاهية الاختيار.

حينما جلست النساء في عزاءيهما ارتدين أكثر ما جاءت به الأيام سواداً ، ارتشحت أنوفهن التي استقبلت سيل الدموع القادم من مقلاة الأعين ، ولا بأس بعد حين وآخر تنطلق إحداهن بوصلة نواح حتى لا تستسلم الباقيات إلى الهمود والكسل .

الطبع أقوى من التطبع ، عزاء السيدات في الريف لا يخلو من الغمزات واللمزات ويداريهن بالصيحات والآهات.

مرفق سعدية مرات الشيخ فاضل كاد أن ينفذ إلى كُلية عفيفة مرات عم إبرآم ويبدو أن الأمر جلل ، أخبرتها عن السعد الذى كُتب لليتيم سعد فحتماً ستأخذه أم العوانس للعيش معها، بل قد تستقدم له من ترضعه وتهتم به كهوانم البندر، ليس بالكثير عليها فمن غيرها أغدق عليه منذ ميلاده

وعلى أبويه من قبله (علشان عضم التربة) ، قضمت عفيفة شفتيها وأظهرت لها العين الحمراء حتى تسكت .

كان بين ممن حضرن لأداء واجب العزاء لطيفة نيابة عن السيدة الأولى التي كانت حريصة كزوجها وولدها على أن تشارك أهل الكفر الأفراح والمصائب، ولما اُبتليت بالروماتيزم خفت حركتها فصارت لطيفة تنوب عنها فاعتادت ذلك وأحبته كحبها لهم وحبهم لها .

تغامزت واحدة مع من تجاورها عن تلك السلسلة الـ (ما شاء الله) التي ترقد على صدر لطيفة فتخطف العين، وعن حاجبيها اللذين قد خُطّا بيد ماهرة رغم تقدمها في العمر وعن جيبتها (الشيفون السوداء) التي طالت إلى مربت قدمها طالت الجيبة ولم تسلم من تطاول الفكر.

قبل أن تغادر لطيفة العزاء أخذت سماسم على جانب وأعطتها بالأمر خمسمائة جنيه من السيدة الأولى مساعدة في مصاريف الطفل لفترة طويلة وسلّمت وقبّلت وربتت على كتفها (البقية في حياتك يا حبيبتي) .

حينما تظن أن الحقائق تتحقق بالمشاهدة فقط فأنت محدود الفكر ، الحقائق وقائع ونيات لا يعلمها إلا الخالق .

بعد انتهاء العزاء أمرت أم العوانس بإحضار الطفل وخرجت بصحبة خالته سماسم وهى تحمله وذهبتا إلى دارها .

انتظرت عطيات حتى أتى زوجها الأستاذ عباس في حضور ابنتيهما أمل وآمال ، أخبرتهم بأن سعداً أقرب إليها من القلب في موضعه لاشك ، ولكنه ليس من دمها كما أنه مُحرّم عليها (ضحكاً بغير قصد أو ترتيب) .

أردفت أنه لا زال طفلاً ولكنه سيكبر وأنها إن اعتادت مبيته معها في دارها لن تتخلى عن هذه العادة بعد سنوات ولن تستطيع أن تفارقه وضربت لهما مثلاً عن إحساس من يبيع عجلاً أو جاموسة بعد عشرة طويلة. كيف يبيت ليلته ؟

كما اعتادوا عليها رجاحة العقل تقلّب الموازين وتعدّل الكثير من الصور داخل أذهان البعض مما جعل البعض يعتقد أنها (ذكاء يمشى على الأرض).

أخبرتها سماسم عن الـ خمسمائة جنيه فردت (ضربة في بطنك يا سماسم تاخدى منها فلوس وأنا على وش الدنيا) ما هي إديتهوملى غصب عنى والله يا خالة

خلاص ترجعيهم بعد الثالث على طول .... حاضر يا خالة

قبل أن ينقضي اليوم الثالث للعزاء كان النائب عبدالسلام قد عاد وذهب لمواساتهم وأخبره عباس عن الـ خمسمائة جنيه ورغبتهم في ردها فلما ضغط عليه في الكلام علم أنها رغبة أم العوانس فاستأذن في لقائها .

ينفع يا خاله تردى محبتي للولد الصغير... لا يا سيادة النائب

طب ينفع يا خاله تردى محبة الست الكبيرة ... ما عشت ولا كنت

أقنعها بأن تساعد والدته المسنة في أن تنال قسطاً من الحسنات في شخص هذا اليتيم فهي قد شاخت وفى أمس الحاجة إلى رضاء الله عنها وضحك بغير قصد (واللا أنتى عاوزه تكوشي على الثواب كله لوحدك يا أم العوانس).

ربنا يديكوا على قد نيتكم ويرفع شأنكم من هنا ليوم الدين

أكملت سماسم إرضاع ابن أختها مع ابنتيها أمل وآمال فقد كانتا توءمتين تكبرانه بعام ، ولا تعجب كيف أتمتا العامين وأكملوا رضاعة، فحليب الأمهات في الريف أغنى من مكملات الحليب في العصر الحديث ولا تعجب أكثر إن رأيت طفلاً صار على مقربة من الالتحاق بالمدرسة الابتدائية وهو يحمل (ببرونة)...حدث بالفعل .

لم تنقطع العادة وظل سعد يتردد يومياً على دار (سته) أم العوانس، يذهب للمدرسة حتى الثانية عشرة ظهراً فيعود إلى دارها ، يتناول معها الغداء ويذهب قبل العصر إلى حلول المغرب ينتهي من واجباته المدرسية بمساعدة عباس ويتناول العَشاء ثم يذهب إلى سته حيث عشق إعداد (المنقد) حتى تنتهي السهرة قبل الحادية عشرة أو الثانية عشرة على أقصى تقدير ويأوي مرة أخرى إلى بيت عباس.

كان مغرماً منذ الصغر بالماعز والخراف ، حينما نجح في الصف الثالث الابتدائي كافأته سته بمعزة (أنثى) في العام التالي ولدت ذكرين و بعد التالية أنثى وذكرًا ، حينما وصل سعد إلى الإعدادية كان لديه قطيع مهيب إذا ما قُورن بقطيع لمن هم في نفس عمره.

اليتيم رحيم، هذه هي الفطرة، فمن حُرم سيعطى طالما أن لطمات وعثرات الزمن لم تطعمه سم الجحود وتعلمه النمردة ، كان يضع العشب لمعزته الأولى عند الغداء وقبل أن يغادر السهرة بما يكفيها حتى الصباح ، كان يرى في ذلك مهمة قوية ومسئولية جسيمة وكانت أم العوانس تكمل ما ينقص من مسئولياته .

عباس كان من المتعلمين القلائل في ذاك الوقت حينما تعهد وزوجته بتربية سعد ، يعمل في قسم الأرشيف في مجلس المدينة التابع له الكفر ، دبلوم التجارة كان كافياً أن يجعله أستاذ الأساتذة ، كان صاحب قلب وضمير معاً يتهرب الموظفون الذين اكتظ بهم المبنى ويبقى هو حتى موعد الانصراف ، كان يستأجر من بعد أبيه فدانًا ونصف الفدان كالغالبية من فلاحي الكفر ، يعتنى بها بعد العودة من العمل الرسمي وتساعده سماسم ، كان هادئ الطباع سماته من سمات الطين يعشق الجلباب الفلاحي ويكره القميص والبنطلون .

في المراحل البرلمانية الأخيرة للنائب الكبير كان عباس ضمن فريق العمل (الحملة الانتخابية) لمعاليه وكان شاباً لم يتجاوز العشرين بعد ، ولما مُد الكرسي إلى النائب الصغير لم ينقطع عباس عن مهمته ، كان ماهراً في إعداد لافتات المحبة والتأييد ، وخبيراً في التعامل مع كشوف الناخبين وصاحب خبرة كبيرة في التعامل مع أعداد قليلة تلوح في أفق كل انتخابات على سبيل المعارضة بهدف جلب المال أو إثبات ذات لم تسعفهم الأيام أن يثبتوها ، يبدو أن عباس بما امتلكه من بشاشة في الوجه وحلاوة في اللسان كان قادراً على إخماد فتيل ثورات استثنائية لم يُكتب لها الميلاد.

كل إنسان ابن زمنه ، كان عباس يلح على سعد أن يصحبه في الجولات الانتخابية. لكن عشق الولد لدراسته ولمعزته وخرافه كان أحب إليه من تلك الجولات.

رغم أن عباس كان من فئة المحافظين الذين رسموا لأنفسهم خطوطاً لا يتعدوها ومن أولئك الذين صنعوا بأنفسهم لأنفسهم قالباً من الروتين ارتضوا به ورضوا عنه إلا أنه كان قريباً من هيكل وإبرآم .

رأى عباس أنهما الأكثر قرباً من سماته في الكفر وأنه رغم حبه للجميع بصفاء نية إلا أنهما يزيدان عن غيرهما من الحب (حبة) .

إن رأيت الناس في ألفة قد تظن أنهم صور كربونية تحمل نفس المشاعر ونفس العقول لكن اعلم أن الأقطاب المتشابهة تتنافر واعلم أن النقصان يحتاج إلى من يكمله حتى وإن لم يصل إلى حد الكمال .

كم من مرة ائتمن فيها عباس إبرآم على ما ظن أنها أسراراً كالجبال وفى كل مرة كان يوصيه بحفظ السر رغم يقينه بأنه أهل للثقة ، ذات مرة قال له إبرآم :

"حينما قالوا إن السر إن خرج من بين اثنين لن يصير سراً كانوا مخطئين فالسر يحتمل أن يحمله ثلاثة وأربعة وألف ، فالمعيار ليس بعدد حملة الأسرار في قلوبهم وإنما المعيار الحقيقي بقدرة هؤلاء على تحمل السر ذاته ، فهناك سر يحتمله فرد واحد وسر آخر يتطلب حمله مئات البشر وآلافًا من الجبال ".

هيكل لم يكن بالشخص الذى يهوى السهر مع الأحباء في البيوت إلا بيت عباس كان على فترات طويلة يذهب إليه فيتسامران غالباً في أحاديث تناسب عقليهما المنظمين ، في كل مرة كان يأتي فيها هيكل كان سعد يتنازل عن الذهاب ليلتها إلى دار (سته) فما أجمل الحلوى التي كان هيكل يدسها في

جيبه للولد الصغير، وإن تأخر الصغير ذات ليلة عرفت أم العوانس وعرفوا جميعاً أن هيكل زائرهم في هذه الليلة .

إن نظرت حولك إلى دنيا اليتيم ستجد أن الله يؤتيه من واسع فضله ويمد إليه أيادي الرحمة التي لا تفارقه إلا في الوقت الذى يحتمل فيه الفراق.

شب سعد وصار يافعاً وعُيّن معلماً في المدرسة الابتدائية وذات يوم مات عباس .

إبرآم

قد تجلس إلى أحد المتطرفين عقائدياً أو فكرياً وربما يطلق عليك أسلحة ضارية من شأنها أن تُهلك الأخضر واليابس ، فإن كنت صاحب عقيدة وفكر خاليين من الشوائب فلن تتأثر، أما إن كنت مهلهلاً عقائدياً وفكرياً فستُساق كما تُساق البعير، حتماً ستتراكم الضغائن بداخلك وتصير كتلة من لهب تهدد الكيان الذى فُطر على المحبة .

عش عُمراً طال أو قصر، جُب الدنيا شرقاً وغرباً من القطب إلى القطب فلن تجد أرضاً تسع الجميع ولا سماء تظلهم معاً ولغة تذيب الدماء في الدماء كمصر ، البطاقات الشخصية قد تميز البشر إلى كذا أو كذا إلا أن حياتهم لحن لا يعرف النشاز.

الوطن نعمة وإللى يكرهه يعمى

سر بقدميك إلى نهاية الكفر، اجلس على حافة ما يسمى (البحر) ، استمتع فالماء يغسل الهموم ويلهيك ولو لفترة قصيرة ، في مكان يبدو منفصلًا إلى حد ما إلى جوار البحر، ستجد بيتاً قديماً متهالكًا من الطوب اللبن يغوص قليلاً تحت الأرض قالوا إنه أقدم بيت في الكفر ، البيت به غرفتان للنوم ووسط الدار ومطبخ وحمام صغير جداً، واقتطعت من البيت غرفة ثالثة كي تحتضن أحذية عم (إبرآم) ، كانت الغرفة قِبلة من أراد أن يخصف أو يلمّع أو يضع حذاءه في قالب، ليس هذا فحسب بل كانت أيضاً مزاراً لمن أراد السمر والضحك والتهام (قفشات) عم إبرآم .

إن قُدر لك أن تزور دكانه ستجد الأحذية أصلًا والناس فروعًا ، أكوام الأحذية في كل مكان قابعة في الغرفة بفوضوية العزاب ، ولكن لأن النظرة الأولى لا تكفى لتثبيت المفاهيم فقد كان إبرآم مثالاً للنظام والترتيب .

الدكان يَفتح يومياً عقب صلاة الظهر مباشرة ويغلق عند الثانية صباحاً ما عدا يوم الأحد يذهب للبندر لا للكنيسة ، فيشترى ما يلزمه من جلد أو طلاء، وفى هذا اليوم يفتح الدكان عقب صلاة العصر ، أما عن عدم ذهابه للكنيسة في الأحد فقد كان يرى أن الإيمان بالرب والصلوات تصلح في أي مكان لا سيما لو كان خالياً ، فإذا أراد الفرد أن يتقن الصلاة عليه أن يكون في رحاب الرب وحدهما دون غيرهما .

الأولاد والبنات في عمر الطفولة والصبا حينما كانوا يذهبون إلى دكان عم إبرآم كم من مرات احتاروا في صورتين عُلقتا من خلفه أخبروهم أنهما للعذراء ولأحد القديسين يدعى إبرآم ، لكنهم حينها لم يفهموا ولم يدركوا، وما إن كبروا وفهم من فهم وأدرك من أدرك لم يثر الأمر اهتمامهم كثيراً لأن إبرآم أفعاله أوضح صورة عن جميع الصور .

(الوطن نعمة وإللى يكرهه يعمى) كلمات إن ذُكرت فلا بد أن تُسبق بـ (على رأى عم إبرآم) .

في عام ١٩٨٧ عاش بين كنف أسرة لطيفة متوافقة ، زوجته عفيفة وأبناؤه إبراهيم وميرنا ومريم وسلوى ، كان فريداً في أشياء متعددة ، اختار أسماء لأبنائه لا تعبر عن خصوصية إن تمكنت منك قد تودى بك إلى العنصرية ، اعتاد أثناء حضور الجنازات أن يجاور القبر لحظة التكريم ،

بمجرد بلوغ أحد من أبنائه سن الرابعة كان يلحقهم بكتاب الشيخ محجوب كي يتعلموا القراءة والكتابة وكان يدفع للشيخ ضعف ما يدفع الآخرون رغم أنهم ذهبوا لتعلم القراءة والكتابة فقط ، لم يخش شيئاً ولم يقلق من شيء .

من ملأ قلبه الصفاء أحب الناس كلية ، ومن غمر الناس بحبه صار سلطاناً يمشى بينهم ، أحبوه رغم قفشاته الحادة أحياناً لكنها صارت عنوانًا لهذا الرجل كما أنهم استأنسوا وأحبوا أهل بيته وأنسوا بهم ، جرحهم هو جرح الناس وفرحهم يسعد الناس .

في نفس العام أصيب إبرآم بزلزال هز كيانه رغم أن الجميع يشهد له بالصلابة والهدوء والمصالحة مع النفس ، كان أكبر أبنائه إبراهيم قد بلغ العاشرة ، كان شغوفاً بالتأمل في البحر الذى وُلد وهو يحتضن دارهم ، كثيراً ما جمع الرفاق فيتنافسون من يلقى الطوب الصغير أولاً إلى ضفته الأخرى ، يذكر أنه ذات مرة كاد أن تنزلق قدماه وهو يتحدى الرفاق في رمى الزلط لكن الله سلّم ، منذ تلك الواقعة منعه الأب أن يفعل ما كان يفعله وإن أراد الذهاب لمكان ما ووجب عليه السير بجوار البحر عليه أن يصطحب معه أحد والديه ، أجاب الولد فقد كان في عمر الطاعة .

ذات صباح دخلت عفيفة غرفة الصبى كي توقظه كما اعتادت ، كان نومه ثقيلًا لكن هذه المرة ذهب ثقل النوم وحل محله ثقل الهم والفجيعة... مات إبراهيم .

خشى إبرآم على الصغير من غدر التيار وتناسى أن الحذر ليس بوسعه أن يمنع القدر، احتشد الجميع في سراي النابلسي يواسون الأب في احتمال فقدان عزيزه الغالي وما إن خلا إلى نفسه أقر بأنه مهزوم وانتابته قشعريرة ضعف هزت كيانه ما لم يعهده بنفسه ولم يعتده ، بعد أقل من شهر سافر إلى العراق يبتغى النسيان ومال يكفل به البطون التي تعلقت في رقبته ، هرب الجريح لعله يجد الدواء من داء لم يعمل له في يوم حسابًا .

جلست لطيفة في العزاء لثلاثة أيام فقد كانت عفيفة مقرّبة منها ربما لأنهما الوحيدتان في الكفر اللتان كانتا تتحدثان بلهجة البندر... ربما .

نبه النائب والدته بألا ترسل معها نقوداً لأن إبرآم سيردها في ساعتها فهو يعلمه كما يعلم أصابع كفيه وقد حاول معه جاهداً لكنه رفض .

لشهور توالت بعد سفر الجريح تعهد عبد السلام كامل بأسرته وجعل زوجته تقسم بالعذراء على أنها لن تخبره عن أموال ألقاها عليها ولم يقطعها فقد كانت تصلها بيديه شخصياً بانتظام ، كان هناك حب وألفة بين إبرآم وعبد السلام ربما لأنهما ولدا في نفس اليوم .

انفرجت أزمة العراق وفُك عنها الكرب بعد انتهاء الحرب مع إيران ، تزينت بغداد كعروس قبيل زفافها بأسابيع ، تعدلت أحوال إبرآم أرسل نقوداً كفت أسرته ووفت ، بعد عامين أقيم بيته بالطوب الأحمر وتركوا بأمره في الطابق السفلى غرفه تفتح مباشرة على الشارع ، أدرك الغريب أنه لكل فراق لقاء .

بعد أن غادر إبرآم لم يحل محله أحد في مهنته ولم يحاول أحد ، إلا أنه وبعد شهرين من مغادرته كان أحد إسكافي القرى المجاورة يأتيهم الجمعة من كل أسبوع لسد فراغه، حاول جاهداً إرضاء أذواقهم فقد كان ماهراً لكن مهارة إبرآم لم تكن فقط في غرزة لهذه (البلغة) أو طلاء لذاك الحذاء ولكن مهارته الأقوى أنه كان حالة لا تتكرر في حياتهم مرتين .

أغسطس ١٩٩٠ - كل ذي علة إن شُفى من علته قد لا يتعلم بل قد يجور ، جارت العراق على الكويت ، هانت روابط الدم فهان كل شيء ، استُبيحت الأرض والأرض عرض ، فصار مظلوم الأمس جلاد اليوم وبدأت نهاية العراق السعيد ومن استباح أخاً لن يرحمه الغريب خاصة وإن كان كلباً مسعوراً يعشق اللحم حتى يُحيى وجوده كل يوم فلا يقدر عليه أحد .

كان قد ذهب لمداواة الجراح وهو إذن لن يحتمل جراحًا أخرى ، عاد إبرآم إلى الكفر وعاد إلى دكانه الجديد ولا شك أن البيت الجديد وفترة الاغتراب قد أزالت الكثير من الندبات التي تركها (لغم) ولده إبراهيم، لم يؤرقه أحياناً سوى البحر.

بعد عودته واستقراره وذات لقاء بينه وبين النائب سأله عن مقدار ما كفل به أسرته في غيابه في بداية سفره فأجاب النائب: ومن أدراك أنني دفعت مليماً واحداً ؟

فرد إبرام: لا أحد .

إذن كيف عرفت يا (أبو المفهومية) ؟

ضحك إبرآم وأردف (هو أنت فاكر يا عُبد إني لو مش متأكد إنك هتعمل كده كنت صبرت في الغربة أول كام شهر والدنيا ملطشة معايا) ضحك النائب من صميم قلبه وأردف : وراس أبوك شنودة يا إبرآم ما أنا واخد سحتوت ... طالما حلفت بالغالي خلاص .

كانا يعرفان بعضهما جيداً ويدركان متى يقبل هذا من ذاك ومتى يرفض وبالتالي كانا قليلي الجدال وأمورهما محسومة بكلمة هذا أو امتناع الآخر.

الإنسان من النسيان صحيح لكن قد تهبك الحياة ما يبدلك الهم بالفرح، في عام ١٩٩٣ رُزق بجورج فعادت البهجة المفقودة وعادت قفشات عم إبرآم ، علمه حب البحر وحرص على أن يضيف إلى صغيره معانى صافية كصفاء السماء وقت العصاري وكصفاء الماء قبل أن يدنسه البشر. احتفل أهل الكفر بالمولود وكان عبد السلام كامل أكثر المسرورين للعم إبرآم .

غريب في الكفر

كان النائب الكبير كامل عبدالسلام ورغم مسؤولياته وانشغاله بالبرلمان أحرص ما يكون على ألا يترك الكفر لفترات طويلة، فقد كان مواظباً على العودة إلى مسقط رأسه مساء كل خميس أسبوعياً على أن يعود فجر السبت التالي ما لم يشغله شاغل، إلا أنه لم يعتد الغياب لفترات طويلة خارج الكفر إلا في رحلات الحج الخمس التي صحبته فيها زوجته ومرتين حينما كان خارج البلاد في سفريتين مع وفد البرلمان لأوروبا .

ذات مساء خميس عاد النائب الكبير ولكنها كانت عودة غير ذي عودة سابقة، أوقف سيارته (الكابروليه) السوداء التي كان يحرص على أن يقودها بنفسه وبجواره جلس شنودة كعادته لكن هذه المرة كانت لطيفة تجلس في الكرسي الخلفي حاملة جنينها ذا الشهور الخمس في أحشائها تاركة خلفها قهر سنوات مضت ، جاء بها إلى الريف الذي تطئه قدماها لأول مرة، سمعت عنه الكثير، رأته في أحد أفلام الزمن الجميل حينما ذهبت بوسوسة من صديقتها شوقية التي كانت تسكن ببدروم مجاور لبدرومها ووقتها أعادتها والدتها إلى صوابها بعد أن تركت على جسدها آثاراً للعصا (السيما مش للي زيينا يا بنتي ربنا يهديكى) وقد اهتدت .

كثير ما نظم لها سيادة النائب الشعر عن جمال الريف وصفائه لكنها كانت المرة الأولى لمن لم ترغب القاهرة في حياتها بديلاً .

نزل شنودة مسرعاً وفتح الباب الخلفي مطالباً إياها بخفة النزول فقد ألقت بقدمها اليسرى على الأرض وسكنت للحظات تفكر في المجهول ، أومأت برأسها أنها فاعلة وسارت خلف شنودة على مهل ورأسها في انحناء لا تدرى هل كان من الحياء أو الاستحياء أو حتى من رهبة الغربة والاغتراب .

كانت السيدة الأولى تعلم منذ الأسبوع الماضي أن النائب (كما حدثها) أراد أن يكفل يتيماً من الألف إلى الياء بل ويزيد على ذلك بكفله لأم هذا اليتيم. حدثها طويلاً عن جور الناس على تلك البائسة ، عن تراب كادت أن تلعقه من فرط الحاجة وعن هواء كادت أن تُحرم منه من طمع الناس في جسد عزّ على الزمن أن يستره ويكرمه ، جعلها تهيم شوقاً إلى لقائها واحتضانها كفتاة لم تسكن أحشاءها ، كان بارعاً في التمهيد حتى أوصلها إلى لحظة التهديد ، هددته بلطف إن لم يأت بها ستخاصمه لأول مرة في حياتها وكررت على سمعه (أبوس إيدك يا كامل ما تحرمناش من رضا ربنا في الدنيا والآخرة) واللا شايف إيه يا شنودة ؟

ربنا يعللى مراتبك يا ست هانم.

أجابها بالموافقة ودعا لها بطول العمر وخرّ ساجداً ورفع يديه إلى أعلى وشكر الله على زوجته الصالحة التي تعين زوجها على فعل الخير وقبّل يديها وردد شنودة (ربنا يخلف عليكم بالحلال يا أسيادنا) .

سار الغريب على لحن الغربة رويداً رويداً يستكشف أرضاً عثرة يدوسها في حرص وهواء يتنفسه في هدوء، وعلى استحياء كفقير عفيف يمد يده لالتقاط ما جاد به الناس عليه .

كانت السيدة الأولى في لحظة القدوم تترقب وصولها من البلكونة البحرية ، وما إن هلّ هلالها همت لاستقبالها.

مرت اللحظات ثقيلة على الغريب وبمجرد دخولها لباب السرايا كانت السيدة الأولى قابضة بما أوتيت من قوة الرحمة على لطيفة ، امتد الحضن لدقيقتين أو ثلاث وامتزجت دموع القوة بدموع العَوَز معلنة بداية جديدة لتلك الضعيفة. وفى أثناء الامتزاج ظل النائب ينظر إلى السماء ويهز برأسه بينما أخذ شنودة شرشفاً لتجفيف دموعه.

حان وقت صلاة العشاء ذهب النائب الكبير إلى المسجد ، استقبلوه كعادتهم بأدفأ الأحضان وأخلصها ، أقيمت الصلاة واستأذن معاليه المصلين في حديث قصير فرحبوا ، قص لهم ما كان من أمر لطيفة وما هو كائن فانهارت مشاعرهم أمام صاحب القلب الكبير والأيادي الرحيمة وربت شيخ المسجد على كتفه ودعا له بأسمى الدعاء بينما كان شنودة بالخارج يدعو له بطول العمر.

كُتبت لحظة الميلاد للأم الثكلى وجنينها، فارقا الشقاء ولامسا رغد العيش والهناء ، كتب الله سعادتهما في أحضان الريف بينما قهرتهما القاهرة ، صارت حكاية لطيفة الخادمة تسرى في الكفر سريان النار في الهشيم، لم يجدوا بيانات كافية عن ماضيها صالحة للترديد واللكلكة أحياناً سوى ما جاد به شنودة لهم عن فقرها وتعاستها وقلة حيلتها. أما عن حاضرها فقد سترته رحمة النائب وزوجته وابنهما عبدالسلام ، كم نالتهم الدعوات الطيبة في جلسات أم العوانس كلما أداروا شريط الذكريات ، كان عطية يردد نقلاً

عن أبيه وجده حديثاً عنها تفنن في وصفها كفراشة تجوب الأغصان وهى تنشر الغسيل على منشر البلكونة البحرية، كان مصمماً على أنها كانت (ملاك وجالهم برجليه) إلا أنه وبعد أن كان يغمرها غزلاً على استحياء كان ينهى حديثه عنها بـ (بس لو مكنتش بتلبس هدوم قصيرة ألا اسمها إيه البتاعة إللى كانت بتلبسها يا بت يا هدية ؟ الجيبة يا عطية ... أيوه الجيبة يا بت أستغفر الله العظيم .

هكذا سيدات الريف إن مرت فلانة أو علّانة في طريق عليهن تُنصب حولها في التو والساعة الحكايات ، كيف تلبس ؟ لماذا تأخر زواجها ؟ من تحب إن كانت تحب ؟ كيف حالها مع الزوج إن تزوجت ؟ كيف الوصال أو الانفصال بينها وبين حماتها ؟ تجيد الطبخ أم هي مجرد خيبة ابتُلي بها زوجها ؟ وإن سيطر الشيطان على جلساتهم تحدثوا عن أسوأ ما فيها وقد يلصقون بها ما ليس فيها .

اجتهدت سيدات الكفر أن يحددن أوصافها وملامحها وكيف تكون ؟ إلى أن حانت الفرصة حينما حلت أقرب انتخابات برلمانية وأقيم الحفل الموسمي وبالطبع كان من السيدات من يذهبن كي يعاونَّ الطباخ في لف المحشى وخبز العيش وتقشير البصل وغسل الأواني وتنظيف المكان، ومنهن من كانت تتلكأ فتأتى بعد إعداد كل شيء فتأكل وتملأ بطنها التي كانت قد تركتها خاوية منذ الصباح عن عمد .

كانت أكثر نساء الكفر حظاً في هذا الأمر فردوس (جدة هدية لأمها) كانت قريبة من لطيفة وكانت لطيفة تحرص على مجالستها بانتظام والتحري عن أحوال الناس في الكفر، كانت تحب جدة هدية وامتد هذا الحب في سنواتها الأخيرة إلى هدية .

قبل الحفل الموعود كانت فردوس منذ الفجر في السرايا واصطحبت أولادها معها ، وظلت حتى وقت متأخر من الليل بصحبتها، وعلى الرغم أن النساء قد نعمن في ذلك اليوم برؤيتها شحماً ولحماً إلا أن أقدر الناس على وصفها كانت فردوس .

فيما أشبه بالعشة كان مقهى الكفر الذى لا يبعد كثيراً عن دار أم العوانس، يكتظ برواده ممن لم يلتق هواهم بهوى الفلاحة فسعوا نحو مهن أخرى وامتهنوها، منهم من كان يعمل في كار المعمار ومنهم من تعلم غزل السجاد على الأنوال وآخرون عملوا في الترحيلة ، فكم نُصبت حلقات في المقهى تروى حكايات وروايات عن تلك الخادمة التي طالت بيديها السماء واقتنت النجوم في حجرها بمجرد أن نَعِمت بمحبة النائب الكبير والسيدة الأولى .

كانت مفتاح صاحب المقهى ولمرات عديدة ما إن يلمح سحلول إلا ويناديه فيلبى سريعاً فيجلس على الجانب الآخر من الطريق في مواجهة المقهى فيأتي إليه مفتاح وبنفسه بـ (كوباية شاي تقيلة معتبرة) ويشعل له حجر شيشة (مصهلل) ثم يستدرجه في الكلام عن السرايا، هو يسأل على مهل وسحلول يرد باقتضاب وتأتأة تُرضى صخبهم، وما إن يدرك مفتاح أن

مزاجه قد غمرته الصهللة حتى يسأله بلؤم عن لطيفة وهو يرفع حاجباً عن الآخر وكأن زلزالاً ضرب كيان سحلول فيلقى بالشيشة فينكسر غابها ويفر لاعناً إياه (عيب يا ابن الكلب) فيستشيط مزاحهم وتتعالى قهقهاتهم حتى تغلبهم أنفاس الدخان فيعودون إلى بيوتهم سكارى القلب بين الوعى واللا وعى فالدخان كان له في زمن مضى فعل الحشيش المضروب .

بعد أن ثبتت لطيفة أقدامها في السرايا وصارت خادمة برتبة ابنة للسيدة الأولى ، مدت الأيام بساطها فاتسعت معارفها، وبمرور الوقت صارت وجهاً مألوفاً للناس رغم أنها كانت على غير هيئتهم ، كانت يافعة هيفاء كأن قوامها قد صُبّ في قالب من قوالب إبرآم ، عيناها تضاهى السماء إن صفت، وجنتاها تنطقان بلغة نضارة لا يضاهيها فيها أحد، ملامحها كالأوروبيات وشهد على ذلك عواجيز الكفر الذين نالوا قسطاً من الرؤية لنساء المحتلين الإنجليز، كانت مرفوعة الرأس إن سلكت طريقاً رغم أنها كانت ترتدى الكعب العالي .

كم حاولت نساء ممن صرن على معرفة وثيقة بها أن يقلدوها في ارتداء الكعب العالي ولكنهن جميعاً كن يتساقطن بل منهن من لُويت قدمها .

كانت بنت البندر متمرسة متفردة في ارتداء الكعب العالي وفى التنورة التي كانت تقصرعن قدميها بنحو عشرين سنتيمتراً .

رغم شرود الناس أحياناً وحيرتهم أحيانًا أخرى في هيئتها،

إلا أن لطيفة حيرتهم بالفعل في أمرين :

أولهما : كيف تسير بتلك القدمين الثابتتين بجسدها الفارع ورأسها المرفوع وعيناها كاليوم الذى أتت فيه لا تفارق النظر إلى الأرض .

ثانيهما : لماذا لم تسلك مسلك النسوة هنا في الكفر في إطالة الملابس حتى يكتمل سترها .

أما عن أولاً : فقد فسروه بالحياء وتوقير صاحب الفضل عليها وعلى الناس هنا أجمعين .

وأما عن ثانياً : فكان النائب يبرر ذلك لمن هم على مقربة منه في الجلسات في السرايا أنها تعودت ومن الصعب أن يرغمها على شيء قد تفسره أنه تحكم من سيد في خادمة، وكان ينهى بـ (ربنا يهديها ويجعلها سبب إن ربنا يسامحنا على هفواتنا فكل بنى آدم خطاء) ... ربنا يعللى مراتبك يا سيادة النائب .

في عهود مضت كانت الحيرة لا تطول، فالطاعة كانت دواء الاستفسار فكيف لمن كان يركب حماراً فيرى كبيراً فينزل مسرعاً توقيراً واحتراماً ، كيف لمن كان كذلك أن تشغله (جيبة) قد قصرت بعض الشيء ومن المؤكد أنه في نفس العهود كان الجهل والطاعة سببين لتقبل أمور ما كانت لتقبل في هذه الأيام، فالجهل أحياناً يكون رحمة والطاعة أحياناً تصبح نعمة .

كان عبدالسلام شاباً يافعاً حينما أتت لطيفة إلى الكفر، وكولد بار سار على خطا أبويه منذ اللحظة الأولى ، أحسن إليها وشملها هي والصغير بمحبته وعطفه، أما هي فقد بادلته الحب كما لوكان ابنها رغم أن فارق العمر بينهما ليس كبيراً وزاد احترامها وحبها له بعد أن تلألأت السرايا بضياء هيكل فقد

أحب الصغير واتسع له قلبه وحنا عليه رغم أنه ليس من دمه من قريب أو بعيد بل وأغدق على الصغير من كيس نقوده الخاص ، هكذا كان عبدالسلام ودوداً منذ صغره لم يشعر أهل الكفر بشقاوته الطفولية لأنها لم تخرج خارج حدود السرايا، وما إن شب وصار صاحباً للعصمة وورث الجاه وكرسي البرلمان في حياة أبيه حتى أحبه الناس أضعاف ما أحبوا أبيه .

ومما يُذكر أنه ذات ليلة كان عبدالسلام عائداً في وقت متأخر إلى السرايا فشاهد سحلول يتلصص على شباك غرفة لطيفة ورضيعها فهرول إليه وسارع بتوجيه السباب واللكمات إليه وبعد دقيقتين أتى النائب الكبير ليخلصه من قبضة ابنه وظل ينزف دماً من أنفه ووجنتيه وهو يردد (أعوذ بالله أعوذ بالله) وداوته لطيفة بالماء البارد وصبغة اليود ونظرة من عينيها الواسعتين رشقت عينيه فخرّ بعدها مغشياً عليه، إلا أن شمة واحدة من (كولونيا) معاليه كانت كفيلة أن تفيقه وتعيد إليه اتزانه الذى فقده بنظرتين إحداهما من الشباك والأخرى من عينيها الواسعتين بعدها أصر عبدالسلام على أن يخرجه من الكفر إلا أن والده أقنعه ببساطة أنه ليس على المجنون من حرج .

وعلى حد قول العامة (البطن قلاّبة) كم كانت طفولة سيف الأمل مليئة بالمشاغبات فبمجرد خروجه من باب السرايا كان متفنناً في شق رأس هذا وإلقاء الطوب على هذا والتعالي على الناس بمجرد سيره في الطريق .

وللحق لم يكن سليط اللسان ولكنه رسم لنفسه حدوداً منذ أن صار واعياً عرف أن سنواته في الكفر معدودة فبمجرد دخوله الجامعة سيصير حر

نفسه . ويبدو أن خوفه من أبيه كان سبباً في ألا يتطاول على أحد بالكلام وأن يعامل الخادمة معاملة طيبة، فلم يكن بينه وبينها سوى طلب وجواب حتى الصغير ما إن رآه في مرة ما كان منه إلا كلمة واحدة (إزيك) .

وكأنها بنت الريف منذ الجذور اجتهدت لطيفة بطيبة أو ذكاء ربما أن تجيد ما تألفه أو تحبه النساء هنا في الكفر فقد صارت منهن وعليها أن تسايرهن ... هكذا رأت .

تعلمت كيف تحلب الجاموسة وكيف تصنع الجبن في الحصيرة وكيف تجلس أمام الفرن البلدي ، لكنها عانت قليلاً في إعداد العجين لكنها نجحت. ومما يذكر أنها حينما كانت تجلس أمام الفرن كانت تلك هي المرات الوحيدة التي ترتدى فيها جلبابًا ريفيًا كنساء الريف ولما استعجبت إحداهن ردت لطيفة (رح العيش عاوز رحرحة) .

السنوات تمضى ولطيفة تمضى معها وتعبرها وهيكل يكبر وينضج كثمرة يانعة على شجرة التفت أغصانها من حوله فجعلته يكفى ويكتفى ، يذكر أنه سألها مرة واحدة عن أبيه بعد أن رأى بعض الآباء يأتون إلى كتّاب مولانا يسألون عن أحوال أبنائهم ، أجابته أن أباه قد مات وهى تحمله نطفة في رحمها وأنه (عند ربنا فوق) وأن هذا أجمل مكان يستقر به المرء واحتفظت له بصورة وحيدة وهو برداء الميرى كان الصغير يقبّلها. ومع مضى الزمن لم يشغله الموضوع بعد أن قصت له أن أباه كان بحراوياً استقر في القاهرة وكان يعمل في حمل البضائع والحقائب للناس من محطة السكة الحديد ، وأردفت بأنه كان جارهم في بدروم في نفس الحارة، ورغم أنه كان قد

أمضى عامين فقط إلا أنه كان محبوباً مما جعل والدها يوافق عليه زوجاً لها حتى يكتمل سترها وأنها لا تعلم عنه سوى أنه كان وحيد أبويه ولم تسعفها الأيام لمعرفة المزيد فقد مات بعد ثلاثة شهور من زواجها ، هنا أدرك هيكل فيما بعد أن أصوله التي افتقدها قد عُوضت بأصوله التي يحياها الآن وإن لم تكن أصول دم .

لغة الحياة لا تعرف الإجماع وطبيعة البشر ألا يجتمعوا على شيء أو على واحد من البشر.

كانت عطيات الوحيدة التي لم تقتنع بتلك الهالة التي نُصبت حول لطيفة حتى ظن كثير من أهل الكفر أنها تكرهها غيرة منها كغيرة الضرائر من النساء ، أكدت لهم كثيراً أن الغيرة لا تليق بها هي فقط لا تستلطفها وعلى حد قولها (بت ملزقة ومحزقة كده ، يعنى أدخلها قلبي غصب عنه ... يا أخي ديهدا).

حينما طالت سنواتها في السرايا وصارت صاحبة التصرف في شؤونها المعيشية بعد تفويض السيدة الأولى لها كان الناس ينظرون إليها نظرة الهانم ، تراكم حبها في قلوبهم بل وزاد حينما أحبوا هيكل فيما بعد (تسلم البطن إللى جابتك يا هيكل).

الرحمة لا تولد إلا من رحم الرحماء الذين يرحمهم الله برحمته ، وإن رأيت القسوة فابحث لها عن أب أو جد أو أصل في السلسال، فلا شيء يوجد من الفراغ ولا شيء مهما علا ينال درجة الاكتمال .

هيكل

حينما يشتد عودك فينحني بك قطار العمر إلى محطات متقدمة حتى تشيب خصلاتك شعرة شعرة ستتيقن أن الخير عنقود قد تنفرط بعض حباته لكنها أبداً لا تنقطع .

مهما تعدد الناس في كفر العقايمة واختلفت أيديولوجياتهم وتنوعت خصالهم بين طيب ومتمرد ، لطيف وسمج إلا أن هيكل امتلك تفرداً وانفراداً بالنسبة لهؤلاء جميعاً، إن رأيته لأول مرة يسير على البحر أو في إحدى الحارات الضيقة وربما بجوار السرايا كأنك ترى مجذوباً كالذي تراه في كل مكان إلا في شيء واحد خالف فيه المجاذيب... هيئته ، كان دائم التأنق بجلابيته الفلاحي (الإسكندراني) وعليها جاكيتة امتلك منها ثلاثًا، اثنتين للشتاء وواحدة للصيف ، قامته فارعة، عوده منصوب، رشيق الجسد شعره طويل إلى الحد الذى يغطى الرقبة من الخلف ومن الأمام مصفف دائماً تتناغم خصلاته الفضية ، ذو لحية بيضاء كثيفة لكنها مقبولة وتزين صاحب الملامح الأوروبية التي لم يرث غيرها عن أمه على الرغم من أنه كان الأول والأخير لوالديه، فلا معنى ولا قيمة إذن لعلم الوراثة في فكرة الجيل الأول أمام قدرة القادر، بشرته دبت فيها دموية فائقة الاحمرار وأنفه كأنوف الألمان ، إن ابتسم تهللت ملامحه وإن شاكه العبوس صارت حادة متأججة كنيران قد تأكل الأخضر واليابس .

في الثلاثينيات كانت الملكية تحكم والناس تطيع، كانت الأصول سيفاً حاسمًا والناس أدمنوا الخضوع لها لا لخوف ولكن فقط لأنها الأصول . من قُدرله أن يولد في الثلاثينيات كان عليه أن يتوحد تحت نفس الراية ، ولا بأس إن شب من هؤلاء في الخمسينيات من قالوا إنهم سيغيرون من مسار البلاد والعباد ... لا بأس .

أولئك الذين أدركتهم الشيبة في كفر العقايمة لم ينسوا كيف اعتنى النائب المرحوم كامل عبد السلام فهمى وزوجته الطيبة بالخادمة لطيفة ، جاءت إلى كفر العقايمة وهى تحمل هيكل بين أحشائها في شهرها الخامس ، كم كانا رحيمين بلطيفة التي مات زوجها وتركها تعافر مع لطمات الدنيا وتتحدى أمواجاً كسياط تلهب الأبدان ، لم تختر ولا أحد يختار قدره لكن الرحيم أرحم بعباده .

يوم أن وُلد هيكل دبت في سراي النابلسي حياة جديدة فللطفولة بريق صفاؤه من صفائها ، فرحة اشتاق إليها الجميع، الأم المكلومة قد استعادت نبضاً قد توقف مع زوجها عامر، ومن باب الفرج وجدت من رحموا بها فلم يكن للنائب وقتها سوى عبد السلام الذى جاوز العشرين وسيف الأمل ولكنه كان حرفاً ساقطاً وغصنًا فارق الشجرة عن اختيار.

مرت سنوات هيكل الأربع الأولى هادئة بالنسبة لأمه ومن أحاطوا به ، كان هائماً في عالم الطفولة فإدراكه لم يتخط اللهو في الجنينة والطعام الطيب ودلالًا غمره به الجميع ، ومع بداية الإدراك كانت شرارة الاشتياق ،

بدأ يتمرد تمرد الطفولة اللذيذ فأصبح لا يحده مكان ضيق ولا تقيده اللحظة ، زنّ بدافع طفولي للخروج من السرايا فهي مهما كانت جميلة إلا أنها محدودة ، فالطفل يُفطر على عدم تقبل القيود ولن تقنعه بالعكس حتى وإن أغريته بجبال من اللعب والحلوى...لن تستطيع .

لم يزعج طفولته أحياناً سوى سحلول ، كان كلما التقى هيكل يباغته (أمك حلوة) فكان هيكل يندفع وراءه بالطوب فيصيبه في ظهره وأحياناً في رأسه حتى أنه أصابه ذات مرة فداوته لطيفة بكتم الجرح بالبن ونظرة من عينيها الواسعتين فخرّ مغشياً عليه وكولونيا النائب تفيق من انتفخ بطنه واختل عقله لكن كيف لهم أن يعلموا أن سحلولاً ارتفع شأنه ورُشقت جوارحه في مقتل وصار من ذوى الأحلام .

كان نبيهاً بالقدر الكافي مما جعله حينما بلغ الرابعة أن يلتحق بكُتاب الشيخ فاضل ، مولانا كان متيماً بذهن الطفل الصافي وقدرته المتفردة على الحفظ. وكان الشيخ يوليه اهتماماً أكثر من غيره بحكم أنه من بيت النابلسي حتى لو لم تكن دماؤه نابلسية ، أما عن الهيام فكان لعبقريته ، وأما عن الاهتمام فقد كان واجباً أمام زلعات العسل والقشدة وأقفاص الفراخ الشمورت والحمام التي احتفظت لمولانا بحمرة وجهه حتى صار يدعى بأن عروقه تركية .

مرت السنون هادئة مشرقة وسار لحنها يُعزف على أوتار رحمة الكبار وطاعة الصغير، حتى إن وصل للمرحلة الثانوية فتخطاها ببراعة ، كان قد صار رجلاً قبل الأوان ، لا شك أن الطموح مسموح ولكن إن مُدت إليك القيود وساومتك الدنيا فعليك أن تختاروقد اختار.

النخوة من أهم سمات الرجال فمن افتقدها لا نَعم بكونه رجلاً ولا طالته تاء التأنيث.

فكّر كثيراً قبل أن يقرر ما كان قد نوى ، كيف يصير شاباً يافعاً يلتمس فيه الناس القدوة وهو لا زال يعيش(على قفا آخرين)؟! نعم أحبوه في السرايا والكفر وصاروا شغوفين به كبار وصغار، يُذكر أنه كان يذهب بالأطفال إلى البحر في وقت العصاري يحكى لهم حواديت تشبع رغباتهم الطفولية ويعلمهم حب البحر وحب الحياة ، كان قلباً يفيض بالمشاعر يسير ويحيا بين البشر.

قرر بلا رجعة أن يتحمل مسئوليته كرجل أمام أمه وأمام ذاته وأمام الناس، صار أميناً على أراضي وأشغال النائب عبد السلام كامل مقابل راتب شهري يوازى إخلاصه وتفانيه ، وراقت له الحياة ولأمه التي صارت سيدة السرايا بالإنابة فالنائب الكبيروزوجته صارا كهلين أشبه بالأطلال .

صارح أمه أنه ينتوى بناء بيت بسيط من الطوب اللبن على قطعة أرض صغيرة من أراضي النائب على سبيل الإيجار أو يسدد ثمنها على مهل ،

عارضته بشدة وألقت بالأمركلية في ملعب السيدة الأولى التي استدعت هيكل وواجهته وراجعته فيما انتوى إليه ، وبعد حوار طويل أنهت الأمر بجملة (تصرف على أمك دا حقك لكن تاخدها من حضني دا حقي أنا) ... كلام سعادتك أوامر حاضريا ست الكل فقد كان يناديها بـ ست الكل .

إن طال الصفاء فانتظر الفناء، ماتت لطيفة في عام ١٩٩١ وتركته وحيداً بلا زوجة و بلا أبناء ، تأثر كثيراً لكنه تدارك الأحزان بعد شهور وعاد إلى ما كان عليه .

من أكرم حياً من الصعب أن يبخل عليه بذات نفس الكرم وأكثر بعد الممات.

أصيبت لطيفة في الشهور الأخيرة قبل موتها بآلام على شكل إرهاق متكرر وغثيان وتصدع في العضلات والمفاصل، وبمرور الأيام نقص وزنها وصارت تلك اليافعة أقل احتمالاً لأعبائها، فعلى الرغم من تقدم عمرها إلا أنها كانت تمتلك احتمال الجبال وصبر الجمال، ولكن تلك الآلام جعلت عافيتها خائرة، تهلهلت ملابسها من فرط الاتساع ووقعت من ذاكرتها أبسط الأشياء، وما إن زادت العلة ما كان من أصحاب الجاه إلا أن أخذوها إلى أكابر الأطباء وقتها وعرفوا أن علتها نادرة كندرة طلتها الأولى على الكفر، وعرفوا أن مرضها حسب ما شخصه أطباء القاهرة حينها يسمى بـ (التهاب الكبد الوبائي) مرض استُجد على البلاد كما استُجدت عليها أشياء أخرى ، كانت المرة الأولى التي يسمع فيها أهل الكفر ومن جاوروهم عن هذا المرض الذى حصد بعد

ذلك رقاباً في إحصائها المرار، غابت ضمائر فتلوث الماء وسُمم الهواء وتساقط الكثيرون من فتك الوباء .

ستون يوماً ذهبت خلالها إلى القاهرة مرات عديدة. وفى الزيارة الأخيرة مكثت ليوم واحد وعادت في كفنها تمهيداً للخلود في القبر، لم يصاحبها هيكل في مشهد الوداع ولأن المُلهَم خير من يُلهِم، فقد اختار برضا وطيب خاطر ألا يشارك حتى ولو بدور كومبارس في المشهد الأخير، تليفون السرايا أخبره أنه قد صار بلا أم .

عاد الجثمان بصحبة النائب الكبير وعبدالسلام وأحد معاونيهم ، عادوا جميعاً برفقة الجثمان قبيل فجر الجمعة، كان الجميع في الانتظار يتصدرهم هيكل وإبرآم والشيخ محجوب ، وكما استُقبلت أول مرة بفيض من مشاعر السيدة الأولى، استقبلتها في المرة الأخيرة بأنات ذلات الهرم وعجز الروماتيزم وهى في ذات نفس المكان، وكان نفس الموعد حتى وإن اختلف الزمان، آهات السيدة العجوز عانقت سماء الكفر، ناجت القمر شكت إلى السماء لكن هيهات ... قُضى الأمر.

أقل من ساعة وأُعدت كل الترتيبات من باكر، تحركت أربع سيارات أجرة وعُلق عليها ميكرفونات تنادى : (انتقلت إلى رحمة الله تعالى لطيفة حنفي قريبة النائب كامل عبدالسلام) .

عزاء الرجال حضره كبار القوم في المحافظة ، تصدر مدخل الصوان الكبير النائبان الكبير على مقعد ثابت وبجواره الصغير ثم هيكل وإبرآم والشيخ محجوب .

في عزاء النساء داخل السرايا جلست السيدة الأولى في صدر المشهد صامتة صامدة طوال الوقت وجلست من حولها النساء إلا من أرادت منهن الغمزواللمز فانتحت جانباً حتى تستر أمرها.

قبل حلول الثانية عشرة مساءً انتهت مراسم العزاء.

كانت تلك هي الليلة الوحيدة التي بات فيها هيكل خارج حدود السرايا ،أقسم عليه إبرآم بالقرآن والإنجيل أنه لن يبيت ليلته هذه وحيداً ،ولما وافق هيكل اشترط عليه أنه لن يبيت إلا في وسط الأحذية . ذهبا وسهرا حتى قبيل بزوغ خيط الشمس الأول وخلدا إلى النوم لساعات قليلة واستؤنف العزاء في يوميه الثاني ثم الثالث .

عجلة الحياة أقوى وأعنف من أن يتحداها أحد مهما بلغ شقاؤه ومهما عظُم ثأره إن ظن أن له ثأرًا، والقدر أرحم بك من نفسك فإن أنت اخترت طواعية أن تتلذذ بآلامك فهو لن يتركك تلقى بنفسك إلى التهلكة بل سيمضى بك إلى طريق النجاة .

عادت الحياة إلى قلب وعقل هيكل، تناسى الآلام وبالطبع ولم ينس لطيفة.

سراي النابلسي كان بها مكتبة تحتضن أمهات الكتب تخطت الألف بكثير، كانت كنزاً لم يدركه إلا هيكل منذ أن وعى وفطن لحب القراءة وهو في الإعدادية ، بل وأعاد ترتيبها وترقيمها حسب مزاجه ورؤيته وأضاف إليها الكثير، يذكر أن النائب عبد السلام كامل كان قد غمره بالعديد من الكتب التي جلبها له من القاهرة .

العلم طريق والمعرفة هي المصباح الذى ينير هذا الطريق ولا قيمة لعلم دون أن تكون عارفاً ومتدبراً لمعانيه فالتلقين قد يصيبك بالتخمة أما المعرفة فتبدو كشهية لا تعرف الحدود .

علمته الكتب أن الرجولة مسئولية وأنه لا خير فيك إن لم تنفع غيرك ، وأنك تحيا بالناس وللناس ، وعلمه البحر أن الجار أمنك وسندك طالما أنك لم تعايره بوجيعته أو أن تدق على عظام ضعفه إن طاله ذل من بعد عز ، وعلمه أهل الكفر أن الطين أصل الحياة فمن زرع شارك في شراء الحياة ، وأن النساء طين الحياة فأولى بالذكور أن يرحموهن ويقدروهن وإلا ما وصانا عليهن خير البرية ﷺ .

الوحدة أم الاختراع ، جعلته يفكر أن يقيم ما أسماه (حلقه الجمعة) يَجمع فيها الصغار يجالسهم يعلمهم أموراً قد تخفى على المعلمين أو على مولانا في الكُتّاب ، أدرك بعبقريته وفطنته أن العلم في الراس وليس في الكراس ، وأن قراءة الورق هي الأسهل أما الصعوبة أن تُترجم كلمات الورق في العقول وحتى تجيد الترجمة لابد لك من دليل وملهِم ، فاختار طواعية أن يلهم هؤلاء الصغار مما وُهِب به من فتوح واسعة في الأفق، اختار ذلك دون أن يبتغى بطولة فهو على كل حال ينال حب الغالبية ، كما أنه لا يعيش في أوساط قاهرية محاطة بالإعلام حتى يبتغى ذلك ، هو فقط وهب ذاته للناس .

ذات مره سألته أم العوانس (ليه يا هيكل ما بتعملش حلقة للكبار أو محو أمية زي ما بتعمل للعيال الصغيرة ؟) أجاب : إذا كبر المرء وعاش سنوات طويلة واكتسب خبرات ومعتقدات في كل نواحي الحياة حتى في

الطعام والشراب والملبس ، فإن حاول أحد تغيير تلك العادات بحلوها ومساوئها سيصير الشخص المستهدف مسخاً لأنه خرج عن صورته السوية التي قدرها له الله وشكلته بها الحياة ، عكس الصغير الذى لم تنل منه الدنيا إلا القليل وهنا يصبح تشكيله سهلًا ويسيرًا.

وحينما كانت تشتد مناغشتها له كانت تسأله عن النساء فكان يقهقه مردفاً (ناقصات عقل ودين) فكانت تضربه على كتفه : بلد من غير نسوان..بلد من مالهاش عنوان يا منيل .

لم يجرؤ أحد على مناداته بـ (منيل) إلا هي ، حينما صارت سنواته الأخيرة في الكفر ارتدى هيئة المجاذيب رغم علمهم باستقامة عقله ، كان جافاً مع البعض كان يوبخهم وأشهرهم عطية ، لكن لم يجرؤ أحد على مبادلته السباب فمن عرفه من صغره يعلم قدره ، ومن مازال في الطفولة أو الشباب كان يخشاه ظناً أنه مجذوب .

وصية
عام ١٩٩٩

من أدرك الثبات اشتاق إلى التغير ومن قلّبته الأيام وألقت به إلي شواطئ متعددة يصبح في أمس الحاجة إلي شاطئ العمر يرقد عليه بسلام ولا يبرحه أبداً . تلك سُنة من سُنن الحياة لا هذا يدوم ولا بذاك يكتمل الرضا .

الحياة تتغير وكفر العقايمة لا يتغير . هبّت رياح العولمة في الأفق وهم لا يعرفون من الاسم إلا العوالِم اللاتي يجلبهن (قلالاة الأدب) في الأفراح . بدأ اللحاق بركب الخصخصة وهم لا يدركون سوى (الخص) وكيف يأتي بالنقود الوفيرة .

مخطئ أنت إن ظننت أنهم أُجبروا على العزلة ولكنهم اختاروها طواعية . أحياناً ينسج المرء رداءً من الماضي كي يؤمّنه في الحاضر والمستقبل . ربما لأن الماضي واقع ملامحه ثابتة أما المستقبل فهو افتراض لن تعيشه سوى في الأحلام وأحلام اليقظة إلى أن يصير ماضياً فيأتي دوره .

قبل ثلاثة أعوام رحل النائب الكبير كامل عبد السلام وزوجته الطيبة في شهر واحد . الموت حقيقة لا تقبل المساومة ولا التأويل ولكن من حكمة الله أن جعل البشر يئولون ويفنِّدون في أساليب وأسباب ونتائج موت أحدهم؛ ربما حتي لا يصير الموت مصطلحاً أجوف وحتي يحمل معاني كثيرة ربما يكون فيها العبرة فيأتي الاتعاظ .

تحدثوا عن الحب العميق والعِشرة الطويلة بين الرجل وزوجته ، وأنه لم يحتمل فراقها شهراً واحداً فألحقه الله بها حتي يأنسا ببعضهما في جنان الخلد.

أسهبوا عن فضل الرجل على هيكل ولطيفة رحمها الله ، وكيف تجسدت الرحمة في أبهى صورها على أرض الكفر ، والأروع أنهما كانا أهلاً للمعروف فصانا الفضل كما يجب أن يٌصان ، وكما ردد عطية لولا أن الرجل يخاف الله لنسب هيكل إليه ولكنه (راجل بيخاف ربنا ، آه وربنا) .

قبل رحيل النائب الكبير كان يخشى من أشياء ولم يٌسِر بها إلا لأمين سره ولده الأكبر عبدالسلام ، وكعادتنا كبشر نعشق التسديد في اللحظات الأخيرة ربما لأن الحياة تشغلنا وتبهرنا فتٌنسينا أشياء وتلهينا عن أشياء ، وربما لأننا نريد لقاء الله بذمة بريئة خوفاً من القصاص يوم الدينونة وربما ندعي ذلك .

بعد أن قضت السيدة الأول نحبها وانتهاء مراسم العزاء المهيب لزوج النائب وأم النائب اختلى النائب الكبير بولده وأفاض إليه بما حمّلته به الأيام من جرح عميق ، كان سيف الأمل لايزال على طمعه في ميراث أبيه ، نعم هو حقه ولكنه أراد أن يبيع كل ما له من إرث أبيه ولم يكن بالقليل ، وخشي الأب علي إمبراطورية قد طوَّقها بسوار السلطة أن تتفتت .

لم ير النائب من يأتمنه على سره وملكه أكثر من عبدالسلام ، ولِم لا ! وقد ائتمنه من قبل وصان العهد كما يجب أن يكون من الصون .

في زمن تطاولت فيه المخالب وأصبحت حادة كسيف برَّاق لا تظن أن تحمل الأمانة بالأمر السهل أو أن تجد من يحتملها بالأمر البسيط .

أمر الأب فأطاع الابن ، قرر أن يكتب وصية موثقة أوصى فيها بميراث ولديه مناصفة شرعاً واستثنى من ذلك عشرة أفدنة لهيكل جزاء إخلاصه في خدمة بيت النائب وصونه لفضل أصحاب الفضل ، وعشرة أفدنة أخرى لجميع من عاشوا في خدمتهم لسنوات طويلة ، كان عادلاً في قسمته رؤوفاً بمن عاشوا في خدمته إلا أنه وضع شرطاً واحداً وهو أنه لا يحق البيع لأحد أطراف الميراث إذا رغب في بيع حصته أو جزء منها إلا لعبدالسلام ومن يرثونه وغير ذلك فلكل منهم حق التصرف في نصيبه كيفما شاء والحصول على أرباحه كاملة منها إلا في حالة البيع لا يحق لأحد الشراء إلا لعبد السلام وورثته .

لا تعجب أن يحافظ المرء على عزه وعزوته في حياته ، ولكن العجب كل العجب أن يحرص على ذلك وهو من ساكني القبور .

وصية بسيطة وبنودها محدودة ودقيقة خاصة أن السيدة الأولى لم تكن تمتلك رسمياً أي شيء ، فالثروة كاملة للنائب الكبير قانوناً وبالتالي له كل الحق أن يورّث من يشاء كيفما يشاء ، لم يمض أسبوع وكانت إجراءات الوصية منتهية وكانت في حفظ المحامي الشهير الدكتور شوكت حفظي .

قبل انقضاء عام ١٩٩٩ كان موعد الانتخابات البرلمانية علي الأبواب ، شهور معدودة ويخوض النائب عبدالسلام كامل معركة الطرف الأوحد ، سنوات طويلة تخطت الأربعين وكرسي البرلمان لم يغادر مسقط رأس النائبين الكبير والصغير ، ورغم بساطة كفر العقايمة إلا أن شهرته بين قرى وكفور المحافظة استُمدت من قيمة النائبين .

ومما لا يكاد يُذكر إلا نادراً أصول النائب الكبير ، قبل عام ١٩٢٠ أتى والد النائب الكبير إلى تلك البقعة واستقر بها وكان متزوجاً ثم أنجب عليها ولده الوحيد (كامل) وكان تاجراً يمتلك مالاً معقولاً فاشترى قطعة أرض بجوار بحر السوق وأقام عليها داراً فسيحة إذا ما قُورنت بغيرها من البيوت والعشش آنذاك وبالطبع كانت قليلة جداً ولذلك من الأصح أن كانت تسمى عزبة .

الأصل لا يولد من الفراغ ولكن إن غرست بذرة في هذا الفراغ فأنت تصنع أصلاً من لا شيء والسنون وحدها كفيلة أن ترسّخ هذا الأصل طالما أن صاحبه يمتلك مقومات صناعته من دماثة الخلق وأن يسير بين الناس على قدمين يحملهما الخُلق ويحركانها الرحمة والمودة .

رحل عبدالسلام الكبير (الجد) وترك كامل (الابن) الذي سار على سنة أبيه، وبعدها فارقته والدته هي الأخرى ، فاستمر في مهنة أبيه (التجارة) وصار أغنى وأيسر حتى أنه استطاع بعد ثورة يوليو أن يمتلك بجهده وعرقه مائة فدان وسرايا النابلسي التي اشتراها من أصحابها الذين تركوا البلاد بغير رجعة.

كانت من عادة النائبين الكبير والصغير أن يحتفلا قبل الانتخابات وبعد النجاح المؤكد ، فقبل الانتخابات بشهور كانت حملتهما الانتخابية تبدأ مبكراً بدعوة الأعيان من أهالي الدائرة والقيادات في مسقط رأسهما إلى جانب أهالي الكفر ، عجول تُذبح وصوان مكون من ستين قطعة قماش بحيث يتسع لأكثر من ألفى فرد ، بالطبع كان عيداً لدى أهل الكفر وحتى لدى الفقراء في

النواحي المجاورة وأولئك الذين يعشقون الطعام على كل الموائد، فهؤلاء لا يخلو منهم عصر ولن يخلصوا إلا بخلاص الدهر.

عن هذا اليوم كانت تُنصب وتُلقى الحكاوي، هناك من يتفاخر بأنه كان على مقربة من البهوات في صدر الصوان ، وآخر يتباهى بأنه قد أكل أكثر من كيلو من اللحم الخالي من الدهن ، وثالث يتغنى كيف أنه كان ضمن المجموعة التي التُقطت لها صور تذكارية بصحبة كبار القوم .

في جلسات أم العوانس كان عطية يدير الطاقية علي سبيل (الفشخرة) ويتباهى بكونه صديق عم دسوقي الطباخ وكيف كان يدس له (كوم) من اللحم والمحشي والحلو في أطباق مغطاة بورق الجرائد ويأخذها لبيته .

مش كده يا بت يا هدية ؟ أيوه (ووجهها تتفجر دماؤه من فرط الابتسام).

ما كان يثير استغراب أهل الكفر لسنوات مضت هو أن العم إبرآم هو الشخص الوحيد الذي كان يتغيب عن هذا المهرجان ، سألوه كثيراً وألحّوا في سؤاله عن سبب امتناعه وتمنعه عن الحضور في السنوات الأخيرة وكان جوابه بأنه صائم ، وكل مرة وهو على نفس الرد ، فلما استعجبوا لأن هذا الوقت ليس بوقت صيام كان يجيب أنه قد نذر نذراً للرب أن يصوم أياماً محددة في العام بعد أن زال عنه بلاء معين ، مرة وأخرى وثالثة وصاروا لا يستغربون غيابه ولا يسألون .

الحياة تبدو كشاطئين أحدهما لمن ارتاده تكتب له النجاة بينما الآخر هو الفراق لمن أراد الفراق .

كان سيف الأمل كامل عبدالسلام قد قطع الشوط الأخير في طريق اللارجعة فاشتد الجفاء بينه وبين والده وأخيه وأهالي الكفر إلى حد لعنة الناس له بمجرد ذكر اسمه تجسد لهم العقوق في شخصه ، وعجباً لثدي واحد أن يرضع ذئباً وحملاً وديعاً في آن واحد .

يبدو أن النائب الكبير كان محقاً حينما كتب وصيته ، أدرك وتيقن أنه لا أمين على سره ومٌلكه إلا عبدالسلام ولكن الأبوة قيد والأصل لا يضن على الفرع بآخر قطرات الحياة إلى أن يفارق الحياة .

قبل تلك الانتخابات بعامين كان قد ظهر رجل ثري من أهالي الدائرة قد أمضى سنوات في أوربا وعاد ليؤسس شركة مقاولات في القاهرة ، وصار يمطر الدائرة بالأموال تبرعات ، مساجد ودورات لمراكز الشباب ومساعدة الأيتام ، ذاع صيته في أنحاء الدائرة ، حاول جاهداً أن يكون مرشح الحزب الحاكم لكن ثبات جذور النائب عبدالسلام كامل كانت أقوى وأكثر ثباتاً ، فقرر الأول أن يضرب خصمه بسلاح رأس المال فاستقطب العديد من شباب القرى التابعة للدائرة مستحدثاً وسائل دعاية لم يألفوها ، شارك الأهالي في أفراحهم وأحزانهم استخدم لغة جديدة حدثهم عن كفاحه في أوربا وكيف عاد إلى الوطن لخدمتهم وقام بتشغيل البعض في شركته الضخمة ، ساعد البعض في عمل مشروعات صغيرة عن طريق الشراكة بالمناصفة ، زيّن مداخل بعض القرى ببوابات حديدية كتب عليها (مع تحيات معاليه) ، أصبح حديث الساعة وأدرك أن قوة رأس المال لن يصمد أمامها تاريخ مهما كان ناصعاً ... هكذا رأى ..

المعركة الانتخابية هذا العام مختلفة بكل تأكيد ، وعلي قدر الحدث يكون الاستعداد ، استجمع النائب عبدالسلام كامل قواه في الحفل هذا العام، استضاف إلى جانب الأعيان اثنين من الوزراء ونجوم كرة القدم وبعض المشاهير من الدعاة والمشايخ ، ذبح أحد عشر من العجول ولم يكتف بالوليمة بل ووزع اللحم على فقراء الدائرة ، صحيح أنه لم يعتد إرسال اللحوم إلى الفقراء إلا في أعياد الأضاحي ولكن السلاح لابد أن يكون على قدر المعركة .

نهاية مؤقتة

من أراد الثأر فعليه بالصبر ومن أراد الحسم فعليه بالانتظار

مرت السنون تباعاً منذ أن فارق سيف الأمل الكفر، ترك الأصل ولكنه لم يفقد الأمل ، كان يعلم أنه سيعود يوم الحصاد فينهل من إرث أبيه بما قُدر له ، السنوات الأخيرة التي شهدت توتراً في علاقته بأبيه ، جعلت أنيابه أكثر اشتياقاً إلى التهام الميراث ، ديونه وإنفاقه الباذخ صنعت منه أسداً اختنق زئيره من فرط الجوع ولكنه عاش على أمل الخلاص .

من عادات الفلاحين حينما كانت الأصول تحكم والعيب سيفًا مسلّطًا على رقاب المخطئين أن يحتكموا إلى كبير أو شريف حينما يحتدم الصدام ، فإن أردت استرداد حق فعليك بجمع الناس المشهود لهم ولتُشهدهم على ذلك، كانت تجربة مضمونة النتائج إلى حد كبير.

أدرك سيف أن يوم الاحتفال أنسب الأوقات للحسم ، فإن طالب أخاه بنصيبه أمام البهوات حتماً سيرضخ خشية اهتزاز صورته البراقة أمام جمعهم ، لا شك أنني سأنجح ... هكذا قال لنفسه .

انتهى البهوات من الطعام سريعاً فهؤلاء لا يُعرون شهيتهم أمام المطحونين حتى يبدوا متعففين ولكن من أدراهم أن الطعام معيار العفاف !!!

نُصبت جلسة الوجهاء المستديرة ، مزاح ، نقاش ، ضحكات صاخبة ، الجميع جاءوا من أجل تدعيم الرجل ، طمأنوه بأنه رجل الحزب وكيف

للحزب أن يجد رجلاً مثله ! يشهد له الجميع بالشرف وحسن السمعة هذا غير دعمه الدائم للحزب مادياً وبسخاء .

لحظة وكان بينهم سيف الأمل ، وقف في المنتصف إلى الأمام صامتاً كمن أراد التأهب لإلقاء خطبة ، حل الهدوء والصمت محدقين في ذاك الواقف ، لم يتأخر النائب في السيطرة على الموقف ، قدم أخاه للوجهاء فألقوا عليه بعبارات الترحاب ، رفع يديه شكرهم وأراد منهم السماح له بالحديث فقبلوا .

تحدث قليلاً ولكنه أصاب الهدف سريعاً ، بدأ كلماته بآية رد الأمانات إلى أهلها ، وكيف سوّف أخوه النائب في إعطائه حقه ، نعم أغدق عليه بالمال لكنه لا يمن عليه بحقه ، أراد حسم الأمر أمام السادة المحترمين وحالاً .

قبل أن يلقي أحدهم بعبارات اللوم إلى عبدالسلام ، أدرك أن اللحظة المنتظرة قد حانت ، وبالطبع كان من بين الحاضرين د . شوكت حفظي فأومأ إليه النائب برأسه إيذاناً منه بإنهاء الأمر.

حدثهم د. شكوت عن الوصية ، وعن أمانة وطهر النائب الكبير وعدله في تقسيم ميراثه بين أبنائه وعن رحمته الوافرة حينما اختص من خدموه بإخلاص بجزء ولو بسيط من التركة لكنه بالطبع كثير بالنسبة لهم .

كل شيء على ما يرام ، الكلام مر مرور الكرام وبهدوء على قلب وعقل سيف الأمل، لكن هدوءه لم يدم طويلاً حينما سرد د . شوكت الشرط الوحيد في الوصية .

انتفخت شرايينه ، ازرق لونه ، سال عرقه، احتدم غضبه ، ثار وهاج ، لعن أباه في قبره، سب أخاه ، وصل الحديث بينه وبين النائب إلى ذروة الشيطان ، أخرج مسدساً كان قد دسه بين ملابسه، أطلق عليه ثلاث رصاصات كانت كفيلة ألَّا يحتاج النائب إلى مستشفى للإنقاذ ..... قُتل النائب.

هنا وفى تلك اللحظة القدر قد وضع نهاية الأمل لسيف الأمل ، لم يتحرك ولم يهرب، جثا على ركبتيه إلى أن أتت الشرطة لتصحبه إلى قفص الاتهام المؤكد وإلى مصير معلوم .

أقل من ثلاثين دقيقة وحضر ممثل النيابة لمعاينة الحادث وتم نقل جثة عبدالسلام إلى مشرحة المستشفى الحكومي المركزي وتم إنهاء الإجراءات بسرعة فائقة تكريماً لحصانته المنقضي أجلها . لم يكن هناك عناء في إقامة مأتم يليق بالنائب، فالصوان مازال قائماً فقط ما استُّجد عليه استقدام اثنين من قراء الإذاعة المصرية وعودة عظماء القوم إلى ديارهم بعد الحادث ليلاً واكتفوا بإرسال برقيات كُتبت بماء الدموع حسب ما ورد في مضمونها جميعاً ، كان جميع أهل الكفر والآلاف من أبناء الدائرة الانتخابية في العزاء فما بالك بشيخ يقرأ ويصدق كل خمس دقائق وما بالك بذاك القادم من أوربا سعدون العامري وهو يتصدر المشهد فقد كان أول الواقفين لتلقى العزاء !

أقل من شهر مضى وغداً محاكمة سيف الأمل الذى اجتث الأمل في مستقبل كانوا يظنونه مشرقاً ، عاش الكفر ليلة لم يعشها من قبل ، سهروا جميعاً حتى الصباح وناموا متأخرين جداً، وبدأ سيف الاشتياق يُغرس في خاصرة الأرض التي التهى عنها الفلاحون .

نُصبت المحكمة، نادى فؤاد وحكم المستشار وهاج من هاج وأطلقت أخريات زغاريد الانتقام إلا واحدًا أُغشى عليه بعد أن بكى دماً ودموعاً .

الكفر الجديد

استقبل العالم القرن الحادي والعشرين ، كتبوا في الماضي عن العالم سنة ٢٠٠٠ ، ولكن ليس مَن تخيل كمن رأى، فالواقع صار أسرع وأقسى مما تخيله أعتى العرافين والمتفلسفين وأقواهم بصراً وبصيرة .

من اختار العزلة لن ينجو بعزلته إلى الأبد، ومن التقفته أيادي الرحمة لن يدوم هناؤه أبد حياته، ومن اختار أن يغنّي للشر خشيةً وابتعادًا لا تظن أنه في مأمن عن أيادٍ قد تنهش جسده إذا ما أتيح لها ذلك .

اليوم سنوية النائب المرحوم عبدالسلام كامل ، بالطبع لم تقم الذكرى السنوية ولم يعد هناك من يُحيي تلك الذكرى ، رحل هيكل لا يعلمون إلى أين ، قُتل سيف الأمل شنقاً بحكم المحكمة ، هجرت زوجة النائب الكفر واستقرت بولديها في القاهرة عند أهلها ، صارت السرايا ملجأ للفئران ومأوى للعناكب ولم يعد منها رغم أنها لا تزال قائمة إلا أطلال لا تعدو أكثر من أنها حواديت قد يجود بها الكبار على الصغار بغرض التسلية أو إلهائهم عن الصراخ لأمر ما .

دار أم العوانس احتفظت بالهَيكل، نفس الدار نفس الرواد، ولكن استُجد عليها أمران :

أولهما : صاروا يلقبونها بالحاجة، فبعد رحيل النائب وبطش الأخ بأخيه ألهمها الله إلى الحج إلى بيته فالحياة لا تُضمن والبشر لا يُأتمنون مهما كانوا على قدر الأمانة وأهلًا لها.

ثانيهما : أن السهر صار عادة تسري في الشرايين ، تمسّخ طعمها في حلق الكبار ولكنها مازالت تبهر الصغار ممن لم يدركوها من قبل، ولكن طال السهر إلى قبيل الفجر والأرض قد أُهملت والنساء صرن كبنات البندر يستيقظون قُبيل الظهر.

شب سعد وصار حد الباب طولاً وصار معلماً في المدرسة الابتدائية ، لكن عشقه لإعداد (المنقد) لم يشب ، يبدو أن للدخان سحراً قد أسره وأصبح لديه قطيع من الماعز والخراف على سبيل الاستثمار.

مات عباس زوج خالته تاركاً بنتيه أمل وآمال وخالته في أمانته ، كان أخا البنتين في الرضاعة ، ظل مخلصاً لزوج خالته وللبيت الذي التقفه منذ أن كان ابن عام واحد أو أقل بعد أن دهس الجرار والديه وقذف بهما إلى البحر تاركينه وحيداً في الحياة ، يموت البشر ويبقى الحي الذي لا يموت .

لم يجد ذاك القادم من أوربا صعوبة في اعتلاء كرسي البرلمان بعد تزكية الحزب له ، كم كان رجلاً وفياً فقد طالب الجهات الإدارية العليا بتغيير اسم الكفر إلى (كفر عبدالسلام كامل) ، وذاع الخبر بالدائرة فعلقت يافطات كُتب عليها (شكراً لصاحب القلب الكبير) فاتسع له كرسي البرلمان لدورتين برلمانيتين أخريين ، تناسوا كل شيء، تناسوا المصنع الذي أقامه على البحر في الجانب المقابل للكفر وسمم مياهه بالنفايات ، وتناسوا المبالغ التي حصل عليها نظير تشغيل الشباب في وظائف الميرى حتى لا يلحسوا ترابه ، شُغلوا عن آثام ارتكبها متحصناً بالسلطة ، تناسوا كل شيء وتذكروا فقط (صاحب القلب الكبير) .

حينما تأتيك محطتك في قطار الزواج لابد أن تبحث عن التكافؤ، هكذا رأي النائب المرحوم ، حينما اختار قاهرية ذات نسب وأصل لتكون زوجته اختارها النائب الكبير وصدق عبدالسلام على الاختيار ، كانت سيدة فاضلة بحق تبهج السرايا حينما تزورها في العطلات أو المناسبات، لكنها كانت تعلم أن إقامتها في السرايا محدودة، كانت ذكية بالقدر الذي جعلها تٌذكر بالخير حينما كانت تٌذكرين الناس .

بعد رحيل النائب أقنعت من حولها أن قدميها لن تستطيعا أن تلمسا حبة تراب في الكفر بعد العزيز الغالي ، انتقلت إليها ثروة محترمة أدارها لها د. شوكت حفظي عن طريق معاونيه، ولم تمض سنوات إلا وباعت إرث الكفر كاملاً واتجهت للاستثمار في القاهرة.

لم يخل دكان العم إبرآم من الضحكات والقفشات ، لكنها صارت بلا طعم تخرج من اللسان أكثر من كونها تخرج من القلب ، صار يجلب الأحذية الجاهزة لمواكبة (الموضة) فشباب اليوم غير شباب الأمس ، كان لجورج دور في ذلك ، بلغ المرحلة الثانوية ولم يتخل عن مساعدة أبيه ، كم كان مخلصاً جورج في تحمل بعض الأعباء عن الوالد .

أدرك إبرآم أن عليه أن يحصل على لقب (مقدس). استفسر، سارع في إنجاز ذلك العمل ، أخبروه أنه إن أراد الوصول إلى مقصده سيٌدق خاتم الكيان الصهيوني على جواز سفره فقرر التخلي عن الفكرة بأكملها مردفاً (ماليش نصيب) .

أحيان كثيرة حينما كان يخلو إلى جورج كان يلقنه أشياء وينهيه عن أشياء ، علمه أن الأمانة ثقلها ثقل الجبال فإن حمّلها أحد لك ولم تكن لديك قدرة الاحتمال فلا تكن عنتري الإرادة ، وعلمه إن رأى باطلاً فلا يسكت عنه حتى لا تضيع الحقوق بين الناس ، وكرر على مسمعه كثيراً (إن الوطن نعمة واللي يكرهه يعمي) .

حينما كان جورج صغيراً كان يستغرب علاقة الوصال بين أبيه وبين شيخ الكُتّاب، لكنه بدأ يدرك الآن .

حينما تخرج جورج من كلية التجارة عمل بإحدى شركات المقاولات في الإسكندرية واستقر هناك وتزوج وأنجب إبراهيم و إبرآم وميرنا .

في الماضي القريب حين كان الفجر يُلقِي بكلماته على الكفر كنت ترى أولئك أصحاب الفطرة السوية والالتزام على أبواب المسجد لأداء الفرض ، وتلك العاملات في شتل الأرز وأعمال الحقل تهتز أجسادهن من فرط الضحك مقبلات على العمل ابتغاء مساعدة أزواجهن في تحمل الأعباء .

وحينما تأتي الظهيرة يحل السكون، فقد آن وقت القيلولة لاستكمال صراع الحياة اللذيذ وشغفها بعد العصاري .

وحين يخيّم الغسق على الكون تعود البهائم إلى حظائرها ، ويسكن الفلاحون لتناول العشاء وتنتهي الفلاحات من إتمام واجبات المنزل ويحلو السهر في دار أم العوانس . ذلك كله حين كان وكان وكان .

الطين راسخ والبشر يتلونون.

شخصية مصر
الزقازيق عام ٢٠١٠

أثبتت التجربة أن من يقرأ كثيراً تُفتح أمامه أبواب الوعي والإدراك إن كان لديه الاستعداد ، ومن يقرأ بلا فهم أو وعي كمن أكل بعد الشبع فلا يستفيد شيئاً أو يٌعتل بالتخمة .

منذ طفولتي المبكرة كنت شغوفاً بالقراءة ، في الابتدائية كنت مهووساً بمجلة ماجد وفي الإعدادية صرت مدمناً لروايات مصرية للجيب، وما إن صرت طالب ثانوي تفتحت عيناي على دنيا الأدب والشعر والتاريخ رغم أنني كنت طالباً في الشعبة العلمية ، التحقت بكلية الهندسة وتخرجت منها وصرت مهندساً يٌشار إليَّ بالبنان، ولكنني لا أجد نفسي ضعيفاً إلا أمام الكتاب ، لم يمسسني مس سوى سحر الكتاب ولم تغلبني شهوة سوى شهوة القراءة .

مهما بلغت من العشق للأشياء إلا أن أعباء الحياة وحدها القادرة علي تبديل وإعادة ترتيب قائمة الاهتمامات ، طالتني الأعباء فأطالت انشغالي ، ساومتني الدنيا بين لقمة العيش وبين اهتمامات أخرى فأٌجبرت على الجد والكفاح كي أبقى في نعمة العيش الكريم ، صارت القراءة في ذيل قائمة الاهتمامات لكنها لم تلق كلية في سلة المحذوفات .

على فترات متباعدة متقطعة كنت أتعمد السير بجوار سور كلية التجارة حيث يجلس عم بدير ، عرفته منذ أن كنت في إعدادي هندسة، كان وقتها كهلاً وبالطبع مازال ، فمن ارتقى سلم الشيب ينعم باستقرار في الهيئة والطبع والعادات .

كبائع في سوق الأحد عندنا كان يجلس متحصناً بالرصيف الملاصق لسور كلية التجارة وبضاعته من حوله أكوام ، كُتب عم بدير تبدو كأرملة أضناها الشقاء ووطئتها أقدام الزمن بلا رفق بلا رحمة وبلا استئذان ، فمن يجد ضالته في كتاب بعينه يغتني به فيعرف قدره فيتحرك نسبياً من طور الشقاء إلى طور البقاء .

ذات يوم مررت عليه ، رحب بي كما اعتاد وغمرني بهالة من الحفاوة والابتسام ، تحدثنا لدقائق في شئون الحياة وكيف تدور عقارب الزمن كنهر في شبابه حاد لكنه لا يعرف الانتظام ، وأردف بأن نغمة الحياة من ذات لحنها .

في ذاك اليوم كنت قد قصدته لإحضار كتاب لم أقرأه أبداً رغم أنني كنت كما نعتني الأصدقاء (سجل المعرفة) .

كيف لمن له مثل اهتمامي بالقراءة أن لم يتسن له بعدُ قراءة كتاب (شخصية مصر) ؟! لكن لا بأس فقد يحتاج الكتاب إلى عقلية معينة في مرحلة معينة بالقدر الذي يضاهي عبقرية جمال حمدان. فالقارئ حينما يشرع في قراءة كتاب معين فهو إذن يدخل صراعاً مع الكتاب وكاتبه ، حرب ليس فيها منتصر أو مهزوم ولكن كلما كانت أسلحتك كقارئ قوية كانت الاستفادة أكبر والمردود أوفر.

أعلنت إذاعة الشباب والرياضة العاشرة صباحاً ، ذات الراديو بجوار الرجل ماركة (٥٤٣) لم يتغير منذ أن عرفته ، ولم تتغير المحطة منذ أن التقيته أول مرة . سألناه ذات مرة عن عشقه لكرة القدم فأجاب أنه لا يفهم منها ولا يعرف عنها شيئًا ، فاندهشنا كيف لمن يواظب على تشغيل إذاعة الشباب والرياضية ألا يفهم شيئاً عن فنون الكرة فكان يجيب لأنها (بتسليني ولا تلهيني) .

بدقات العاشرة آن لي أن أنصرف فالأعباء لا ترحم وضغوط الحياة كعرض مستمر ، ودعت الرجل وودعني باشتياق كاشتياق اللقاء. كم كان بشوشاً عم بدير حتى أنني داعبته كعادتي من قبل بأنني أرى لحيته البيضاء تبتسم، وهنا قهقه أيضاً كما اعتاد معي ، قبل أن أغادر لم ينس دعوته لي (ربنا يطعمك ما يحرمك يا بني ويكفيك شر المستخبي) .

مرت ليالٍ وأنا أتصفح يومياً بانتظام بعض صفحات الكتاب حتى وإن قَلَّت ، ومما زادني شغفاً وأعاد إليّ غرس بعض الدوافع القديمة هو أنني في صراع لطيف مع مبدع خرج بالجغرافيا من حيزها الطبيعي الضيق إلى عالم الأدب والترنيم الذي يبدأ ولا ينتهي .

قلبت صفحة للانتقال إلى الأخرى ، فإذا بها على غير شاكلة الورق السابق فلم تكن مطبوعة بل خُطت بيد ماهرة دققت باستغراب فقرأت :

بسم الله الحق العدل مالك الملك

عزيزي ..... لا تستغرب ولا تستعجب فأنا من كنت أمتلك هذا الكتاب قبلك أو ربما امتلكه أحد لكن قد يكون اشتراه من باب الوجاهة فلم يتصفح

ولم يقرأ ولم تصله رسالتي . واعلم أنه طالما أنك من تقرأ رسالتي الآن فأنت فقط من تستحق ثقتي .

وكأنني أراك أمامي الآن عاهدني أن تنفذ وصيتي من خلال هذه الرسالة ، دعني أحمّلك أمانة في عنقك وأظن أنك أهل لها ، عليك أن تعيد حقاً كان مسلوباً وأن تقيم عدلاً هدمه أحد بواعز من الشيطان ، عُد بالحق إلى أصحابه فإن لم تفعل لن يعيده غيرك ، لا تستغرب فمن تهافت على قراءة كتاب كهذا أظنه يُؤتمن على رد الحقوق لأهلها، فمن يعي الأشياء بما تستحقه من وعى وتدبر قادر على إعادة استقامتها إن ضلت طريقها واعوجت أو على الأقل فشرف المحاولة سيكفيه شر تأنيب الضمير.

صديقي ... رغم عشقي للقراءة واتساع أفقي إلى آفاق بعيدة إلا أنني يوما لم أكتب رواية أو شعراً أو حتى قصة قصيرة، لكن الحاجة أم الاعتراف، فإليك قصتي (وصيتي) :

أنا هيكل، رجل بسيط يعيش في كفر العقايمة التابع لمحافظة الشرقية ، بلدة جميلة كغيرها من ريف مصر قبل أن تلوثه براثن المدنية الزائفة وقبل أن تناله أيادي الظلم .

نشأت يتيماً فمُدت إلينا أيادي الرحمة ، والتقفتنا أسرة عريقة ، كنت مدللاً رغم أنني ابن الخادمة ، عشت طفولتي ومهد شبابي داخل سياج محكم من حب الآخرين ورأفتهم ، وصرت فيما بعد مهيباً ومهاباً رغم كوني غريبًا ويتيمًا ، فالغريب أعمى واليتيم مقهور، لكنني كنت أسعد حظاً من ذلك بكثير.

لا أذكر شيئاً أرّق طفولتي أحياناً سوى ذاك المجذوب (سحلول) بدين الهيئة لا تعرف له طولاً من عرض ، كرشه منتفخ كبالون يترنح في الهواء يأكل في اليوم أكثر من ست مرات وكأنه لا يأكل، يسيل لعابه على ذقنه ويمسك ببعض من القش في يديه، أعطاه صك الجنون حقوقاً تفرّد بها يدخل أي مكان دون استئذان يبول في أي مكان مهما كان، يشتم هذا ويلعن هذه دون أن يضع اعتباراً لأحد، وكيف يَعتبِر من اعتبره الناس خارج نطاق الحياة ! كان يغيظني كلما رآني (أمك حلوة) وكنت صغيراً فأزعجتني الكلمات بوازع طفولي. لو أنه كان حياً الآن ربما قتلته بدافع الغيرة. ما كان يزعجني فيه تلك العينان الضيقتان التي تبدوان مخزناً للأسرار، فما رأيته ينظر نظرة لأحد كتلك التي ينظرها للآخر ، ذات مرة وجدوه تحت شباك غرفتنا في الطابق الأسفل من الفيلا ميتاً ودُفن سره معه .

عشت في سرايا النابلسي ، خطوت نحو المعرفة في كُتّاب الشيخ فاضل، أدركت الدنيا أكثر وأكثر ، صرت أميناً فيما بعد على أراضي وممتلكات النائب عبدالسلام كامل الذي ورث الطين والجاه بعد مماته وكرسي البرلمان على عين حياته .

حين تخرجت من المرحلة الثانوية ، كراشد مثقف، أدركت أن الجامعة حتى وإن منحتني وظيفة فإنها لن تزدني علماً ، وأنه لا فائدة لعلم بلا عمل وأن العمل قد صار عليّ فرض عين ، فهل ومن باب النخوة وبعد أن صرت حد الباب طولاً أن أظل بلا مسئولية تجاه والدتي التي رحمها الله ورحمني حينما

مُدت إلينا أيادي النائب الكبير وزوجه وولده عبدالسلام ؟! بالطبع ليس معقولاً .

أقنعت الجميع بما انتويت، ومن إذن يقنعهم غيرى وقد صار الذكور وإن قلوا يُسمّون على اسمى من باب الأمل أن يكون أحدهم صورة مني أو قريب الشبه على الأقل ، هذا بالطبع قبل أن تطول لحيتي ويظن البعض أنني قد صرت مجذوباً .

عزيزي .. التغير هو الثابت الوحيد في الحياة ، فلا صيف يدوم ولا العام كله شتاء ، جهابذة الفكر منهم من اختل وأعاظم الأطباء منهم من اعتل والغروب يبتلع الضياء والأرض يوماً لن تعادل السماء .

بينما كان يلهث الشباب وراء الزواج وهذا حق وواجب إلا أنني لم أكن مولعاً به رغم أنني أحببت ، ربما أصابتني القراءة بتخمة الأفلاطونية ، فجعلتني أجيد الفصل بين الأشياء. فلا الحب مفترض أن ينتهي بزواج ولا الزواج سيكون المحك الحقيقي لحب كاذب أو صادق .

أتممت عامي الخمسين في ١٩٩١ وكانت أولى المرات التي لم أسعد فيها بيوم ميلادي رغم أنني كنت أسعد بتخطي مراحل العمر، كنت أشعر أن مهابتي وهيبتي من عمري، فكلما كبرت زادت هيبتي وعظُم وقاري ... هكذا رأيت .

الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠ ذاك اليوم المشؤوم ، فالعراق السعيد رأى البعض بوسوسة البشر برعاية الشيطان أن سعادته لن تستمر إلا باجتثاث سعادة الكويت .

تجسد الظلم أمامي ينهش ولا حياة لمن تنادي ، صحيح أنني قرأت وسمعت عن قهر الطغاة لشعوبهم وعن الإقطاع الذي جعل الجوع وجبتين رئيسيتين يومياً على الفلاح الفقير ، لكن أيضاً لا شك أنه من قرأ وسمع ليس كمن رأى وصار شاهداً على الأحداث، فالرؤية إثبات والسمع حكايات وربما افتراءات ووشايات تحتاج إلى آلاف الأدلة حتى تصل مرحلة التثبت والإثبات .

عقب رحيل والدتي صرت أكثر حساسية في تعاملاتي مع البشر وبت أقل احتمالاً لأفعال كنت أحتملها قبل هذا ، فأما عن الحساسية المفرطة داويتها بالصبر، وأما ضعف الاحتمال واريته بالهزل والتهكّم على الناس ، فكان الجميع يحرصون على بقائي هادئاً حتى وإن خالفوني في الرأي، ومع مضي الأيام صار التهكم على الآخرين وجهي الذي أسير به بين الناس ، وجه ألفه الجميع على رغم ما كان إلا هي لم يخدعها القناع .

لتعاقب الأشياء حكمة وفى تعاقب الفصول نعمة، فاعشق منها ما شئت فللقلوب شئون وللعقول غايات ولولا اختلافهم ما هام شاعر في نسمات الربيع وخضرته ، وما اعتُل عاشق حينما اختلى بنفسه في ليل الشتاء.

جلست لسنوات في غرفة الناظر حيث الكتب ، صارت الغرفة مكتبة تحمل بين جدرانها عبق الماضي البعيد كما لو كانت لابن رشد في زمنه ، لم أطق في حياتي أن أقرأ ولشعاع الشمس أثر في صفحة السماء. كنت في الليل أجد ذاتي وكان الليل خليلي الأمين ، عرفت تعاقب الفصول من الليل فقط ، فإن سألتني فاسألني عن الليل وإن أردت إغوائي فابعث لي بجنيتي في الليل .

ذات ليلة خريفية جلست كما اعتدت على كرسي قيل لي إنه كان لأحد الأمراء في عهد الملكية باسترخاء خفيف إلي الخلف ووجهي صوب الشباك البحري، تؤنسني الكتب وأمهاتها أكثر من ألف كتاب، ظننت أنني قرأتها جميعا من فرط ما قرأت . هذا الكتاب التقفته يداي ربما يضيف لي شيئاً أو أن أجد فيه جديداً . الأغاني للأصفهاني فربما أكون قد تناسيت ولم أكمله في السابق لا بأس فهو كتاب لطيف على أي حال . النسخة قديمة جداً قلبته ورقة ورقة حتى توقفت عند ورقة ليست بهذا العتق على شاكلة باقي الورق اندست بين الصفحات . ففتحتها قرأتها . ويبدو أن إغماءتي استمرت حتى بلوغ الفجر.

وثيقة زواج

اسم الزوج : كامل عبدالسلام بخير

اسم الزوجة : لطيفة حنفي متولي

أدركت فيما بعد أنني على الأرض، سقطت مغشياً علي وقد طالت غفوتي . الفجر قد اقترب، هدأت نسمات الخريف وكأن السماء ابتلعت الأرض بين أحشائها ولم تلفظها، صار جسدي كأصنام الجاهلية التي لا تهب ولا تهيب .لا مشاعر لا أحاسيس لا دموع كأن الغيبوبة قد عاودتني وكأن اقتراب نحبي قد حان .

قبل أن يعود النائب عبدالسلام كامل من جلسات البرلمان كان قد مضى أسبوع .لا أمتلك ذكريات تُحكى عن تلك الأيام السبع العجاف؛ فالذاكرة تختزن ما شاهدته ولمسته وعايشته من أحداث أما أنا فقد كنت من عديمي الحواس الخمس في تلك الأيام حتى أنهم ظنوني قد مُسست .

عاد الرجل بلا تهيئة كان علي أن أحسم الأمر ، وكان على غير توقعي هادئاً واثقاً أجاب عما قهرني وأسهب في الحديث بمجرد أن ألقيت بين يديه بوثيقة الزواج وملخص قوله :

في بدايات النائب الكبير مع مجد البرلمان تملّك عمارة سكنية من أربعة طوابق أقام في شقة في الطابق الأول علوي وبصحبته شنودة والد إبرآم الذي استطاع بمعاونة أحد معارفه أن يأتي للنائب بخادمة كي تطبخ وتغسل وتنظف ، ونظراً لجمالها وصباها وأخلاقها كانت تغادر قبل أن يلوح أول خيط للمساء في الأفق ، وكانت هادئة الطباع طاهرة اليد ليس لها في الدنيا سوى أمها ، فارقهم الأب في حرب ١٩٤٨ وكان (على باب الله) لم يترك لهم سوى صورة بالميرى ، وعليه فكان على التعيس أن يسعى، ففي السعي أمل مهما لطمتك زلات الحياة ، بعد خدمتها للنائب بشهور قليلة فارقتها الأم فصارت كغصن لفظته الجذور وعليه أن يواجه عنفوان الريح و(سآلة) البشر.

كانت لطيفة على قدر كبير من الإخلاص والأمانة في خدمة النائب وكان النائب حريصًا على سترها ، كلاهما هو وشنودة في الخارج معظم الوقت وإن صادف وتواجدا في الشقة أثناء تواجدها كانا يلازمان البلكونة ويقضى

النائب الكبير الوقت في تدخين الشيشة وكان يحرّم على شنودة أن يتواجد معها ولو صدفة في مكان وحدهما داخل الشقة .

ذات مرة ظل شنودة يرص له حجارة الشيشة حتى أثقل رأسه قليلاً بينما هو كان يترنح من مجرد شم الدخان، زلف لسانه وتغزل في لطيفة ووصفها بغزال شارد قد ضل طريقه مع عثرة الأيام ، ألقى النائب بخرطوم الشيشة بقوة على الأرض وصفعه صفعة احمر بها وجهه كقلب بطيخة ناضجة .

(دا أنت بتبصبص لها بقى من ورا قفايا يا بن الكلب)

" لا والله يا سعادة البيه دي مرات عم دسوقي الجزارهي قالت كده وأنا باشترى منها الكرشة أصلها أساساً من الحتة بتاعتهم ظلمتني يا سعادة البيه. قالها وهو يجفف دموعه في ذيل جلبابه " .

دقائق ونادت لطيفة على النائب واستأذنت في الانصراف بعد أن انتهت من أعباء المنزل اليومية فقد حان النهار أن ينقضي، فناولها أجرة الأسبوع وبزيادة (ربنا يطعمك ما يحرمك يا سعادة البيه) .

إن سكن الشيطان عقل رجل فلا يغرنك عمره وإن كست الشيبة رأس رجل فلا ينتهى أمره .

استطاع شيطان البشر أن يستميل عقل النائب الكبير إلى تفاصيلها فصار يتلصص عليها وهى واقفة وجالسة وأيضاً حينما كانت تقف على السلم تنظف النجفة ، ظن أنه اللص الأول فما كان يعلم أن شنودة قد سبقه مع يقينه أن تلصصه هو السقف الأعلى لأمنياته تجاهها .

حكمة الرجل ووحدته وتقدم عمر زوجته قد أهدوه جميعاً إلى حل وحيد وهو الزواج بلطيفة .

لا تقل أنا أريد ولكن قل إن الله شاء.

مخطئ من ظن أن الإلهام يأتي بدافع من صفاء القلب والعقل وإنما قد يخلق الصراع والمِحَن إلهاماً من نوعٍ جديد ، تشابكت الظروف كي تلهم الملهَم أن يتزوج بها علي شرع الله وسنة النبي (ﷺ) فمن عرف الرحمة يحرص على شرع الله ... هكذا رأته حينما طلب قربها .

من باب الاحتياط انتقل النائب إلى فيلا جديدة في أطراف القاهرة ودبر لها خادمة وسفرجيًا وطباخًا وحارسًا، جميعهم من غير المصريين. وهكذا صارت خادمة الأمس سيدة اليوم .

ظل سر النائب الخطير في مأمن بعيداً عن الناس ولم يطلع عليه سوى شنودة الذي عاد بعد ذلك إلى الكفر ولكنه ظل أمينا على سر سيده حتى قضى نحبه .

ذات مرة كان إبرآم جالساً إلى شنودة وإذ بالوالد يبوح للولد بأسرار شبابه كيف أتي وكيف تزوج وكيف كان لا يعرف من الحرام إلا اسمه ، وباح له أنه يتعجب كيف لمن دنس الأرض بخطواته أن يكون له ولد مثلك ، وظل يعترف ويعترف حتى انفرط لسانه فحكى له عن هيكل وسر أمه فاحمرت عينا إبرآم لأيام وأيام ومات شنودة بعد يومين من الاعتراف تاركاً هماً ثقيلاً على كتفيه وظن الناس وقتها أن عينيه تلونت بلون الدم من دموع تلازمه كل يوم على إثر فراق أبيه .

شهور ودبت حياة جديدة في بطن لطيفة نُطفة خرجت من رحم لم ترحمه الأيام ، كفلاح أصيل صان عرضها فلا أمان لوليده القادم إلا في داره ، فقرر الذهاب بها وبساكن أحشائها إلى الكفر.

إن تملكك الشيطان في لحظة فعليك أن تبدل في خططك وأن تنزع بعض الفضائل من صدرك فيمسّك بمس قد لا تبرأ منه أبداً .

عاد بها كخادمة مات زوجها ويُتّم من في أحشائها، فأراد الرجل أن يكرمها ويصون عرضاً قد تنهشه (كلاب السكك) ومن غيره صاحب فضل ! ميزان للعدل عون للضعفاء ، أما عما بينهما فالشيطان هيأ وصوّر ومنعه من الاعتراف وما على لطيفة إلا الرضوخ ، ولعل ما فعله كمثل من يشرب الخمر فإن أتوه بلحم خنزير قال (إني أخاف الله) .

قبل وفاة النائب الكبير بينما كان يأتمن عبدالسلام على وصيته ألقى إليه بما لم يخطر له على بال لكنه كان على درجة من الحكمة جعلته ثابتاً أمام قدر قد فات أوان الاعتراض عليه ، فماذا هو فاعل بشيخ قد أشرف على الموت ، وما أوصى به النائب الكبير شفاهة لولده أن يعطي لهيكل نصف ميراث سيف الأمل بعد أن يشتريه عبدالسلام ، كان الرجل يعلم أن سيف الأمل لن يترك ميراثه إلا وتخلص منه ولذلك وضع شرطاً بعدم أحقيته بالبيع إلا لعبدالسلام وورثته من بعده ، وبالنسبة لهيكل فيتم تعويضه بهذا الشكل أما عن النسب فالوقت صار غير مناسب لأي تعديل أو تغيير.

أن تُبتلى في جسدك فهذا قدر الله أما أن تُبتلي في نسبك فهذا قضاء الله بتدبير شياطين البشر.

مرت أيام بعد المواجهة بيني وبين أخي النائب عبدالسلام ، منذ تلك اللحظات لم أثرولم أهد الدنيا فأجعل عاليها أسفلها ، يبدو أن إدمان الكتب وبشرتي الأشبه بالأوروبية قد نزعا مني نخوة الرجال وثورتهم فاستُبدلت بدماء قطبية ومشاعر الجماد .

قد تُبتلى فتأتيك الفرصة للثأر وتصحيح المسار ، فإن كنت شهوانياً ستقايض وإن كنت قَبَلياً ستنتقم وإن كنت إمّعة ستصير عبداً صالحاً أبكماً.

تبدلت حولي الدنيا وارتدت أمامي رداءً فاقع الاحمرار فارتديت لها ثوباً من المكر والخيانة المسبَبَة ، فمن ذاك الذي يلوم على ثور أرهبوه وساوموه حول بقائه أو بقاء الآخر فإن لم يفتك بالآخر سوف يُفتَك به، ومنذ اللحظة التي لم يختارها هو بل هم من اختاروا أن يزجوا به إلى المضمار ، منذ تلك اللحظة هو حي بموتهم وهم أموات حتى وإن كان بينهم أحياء .

في لقطة نادرة في ليلة الأضحى قُبيل صلاة العيد كنت أنا وإبرآم في حجرة الأحذية، ذهبت لجلب حذائي الجديد ، شهور مضت ألهاني نهارها وضحضحت عظامي لياليها، اكتويت فيها بلهيب الشرف المفقود ، سرحت قليلاً، نبهني إبرآم أن الجميع قد انصرف وأن الحذاء الجديد قد صار طوع أمره ، تنبهت ثم غفوت بذهني ومرت دقائق وكأنني طرقت باب عراف ، حاورني وناورني حتى تثبتت عيناي في عينيه وبكينا دموعاً بطعم الدم فأسقطنا الحقيقة بمرها وعارها بين كومة الأحذية البالية .

أحسست أنني صرت عارياً مفضوحاً ، فالسر لم يعد سراً ، فطمأنني أن السر لا يقاس أمنه وأمانه بعدد حملته وإنما بمدى قدرة هؤلاء على الاحتمال

فأعادت كلماته الأمل لمن صارت حياته من حياة القبور وشرايينه لا يبقيها حية سوى سائل من السم الزعاف .

أطلت التفكير فيما حلّ بي وما صرت إليه ، أرهقت معي الليالي الطويلة فالقمر كلما أراد النفود استجديته الخلود ، ناجيت السماء من شباك كان شاهداً على حسرتي وفجيعتي ، ناجيتها أن تجعلني ساحراً فأبطش ولا أرى مكروهاً ، أنتقم ولا يمسسني ضُر، أُقيم العدل ولا أُنعت بالظالم .

قراءاتي الكثيفة التي علمتني وسبحت بقلبي وعقلي إلى آفاق ممدودة هي التي ألهمتني الخلاص الذى يرضيني ، كنت قد قرأت عن سم بطيء المفعول يدس في الطعام أو الشراب فيهلك صاحبه بعد فترة فيشيع موته وسره مدفون في التراب الذى يواريه .

كم كان يطيب للنائب عبدالسلام في السابق أن يشرب قهوته من يديّ كأخ لم تلده أمه (على حد قوله) لا بأس فالنائب يعود أسبوعياً ليومين ويشرب من يداى هاتين أكثر من فنجان للقهوة، فلنزدهم بدافع خفي من المودة على اعتبار أنني أخوه من أبيه ولنحفظ سرنا يا أخي، فما صار على لحن الماضي قد وُئد وما فات قد ولّى ومات .

... كم كنت بارعاً في فن التشخيص .

وضماناً لإنجاح خطتي قررت أن أتأكد بنفسي من مفعول ذلك السم، لكنه من المفترض أن يكون بطيئاً نعم سأحتمل سآلة بطء الوقت وأتلذذ بموت أخي لكنني لن أحتمل موت فأر التجارب بذات نفس البطء ، قررت أن أختبر وأنفذ في آن واحد أن أسرع وأبطىء في نفس التوقيت.

كان لأخي عبدالسلام كلب أطلق عليه اسم (الرهيب) حينما كان جنابه يصل إلى السرايا كان الرهيب يقفزعلى صدره قفزة العشاق .

قمت بوضع السم للنائب في القهوة على مهل وللرهيب في الطعام بكميات مضاعفة ولمرات عديدة يومياً وفى أقل من عشرة أيام سقط الرهيب ودفع ثمناً لذنب لم يقترفه ولكن فقط لأنه كلب جنابه .

الانتقام هو أن تثأر وحدك بدونية ممن اغتصب منك حقاً ، وأما أنا فأقيم عدلاً ولا أريد شيئاً من الأموال والطين، بل أريد أن يعلم الناس أن آل بخير ظلماً ارتدى ثوباً أبيضاً كمن أدى الفروض وهو على جنابة ، من مات منهم عليه من ربه ما يستحق ومن مازال على قيد الحياة فإني كفيل به إلى أن نلقى جميعاً وجه الحى الذي لا يموت .

العدل سيتحقق بقطف رقبة أخي لأنه تستر، وعلى الرغم من أنه عدل يسير بين الناس لكنه عليّ وحدي قد تجبر ، أما إبرآم فالحال معكوس فهو لا يستطيع إعادة حقي وليس من دمي والأهم أنه على عاري كان كتوماً ولم يفضحني .

بعد فترة ظهرت على النائب العلامات التي توحي بأن نهايته قد اقتربت حتى أننا في أسبوعه الأخيرعلى قيد الحياة استدعينا له الطبيب أكثرمن مرة ثم كان اليوم الموعود في حفل النائب قبيل الانتخابات ، وليلتها كان ذبْح العجول واستضافة كبار القوم وقدوم أخي سيف الأمل الذي انتزع مني لذة نشوة الانتصاربتحقيق العدالة فقتل أخانا وما هو بقاتل فأنا الأولى بالثأر.

بعد شهرين تقريباً من بدء دس السم في القهوة كان النائب على موعد مع توهج الألم، لا أعرف أن أصف تحديداً الشعور الحقيقي في تلك الأيام هل هو فرح ، لذة الثأر أو حتى انتشاء لا أعرف .ربما كانت مشاعر مختلطة فلم أستطع تحديد كينونتها بالضبط ولكن القدَر لم يمهلني لأذوق طعم هذا الانتصار فقد سلبني سيف الأمل لذة نخب الكأس الأخير في حياة أخينا .

الحياة وإن ظلمت فهي عادلة، فالظلم بساط لابد أن تلقى العدل في منتهاه ، والشيء بالشيء والمعيار بالمعيار فمن كان ظلمه يُعزف بلحن البطء كان القصاص والعدل لابد أن يسير على ذات نفس اللحن .

قُتل عبدالسلام وشُنق سيف الأمل وقُضي الأمل في بقائي حياً بين أهالي كفر العقايمة ، صرت أخشى البحر الذي عشقته أن يلومني في لحظة فيبتلعني ، صرت أخشى أن يُفضح أمر نسبي فيسلخون قلبي معايرة ، قررت أن أرحل بلا عودة ولم أر أحداً من أهالي الكفر بعدها إلا في يوم المحاكمة حينما تسترت في الخلف وبعد الحكم بكيت دماً ودموعاً .

عزيزي هذه وصيتي وستجد وثيقة الزواج في الثلث الأخير من الكتاب عد بها إلى الكفر وحرص على لقاء إبرآم واجمع الناس وقُصّ عليهم ما قصصت عليك وأخبرهم أن الحق أحق، فإن أحسست بأي معاناة فعُد ولا ترهق نفسك فما عليك إلا البلاغ، وإن لم تفعل من الأساس فيكفيني أنني قد روّحت عنك بقصة من واقع أليم وأنت وشأنك وضميرك .

المخلص هيكل كامل عبدالسلام بخير

رد الأمانة

بمنطق الحياة تسعى جاهداً لدفع بلاء أو تحقيق الانتصار، هكذا خُلق الإنسان في كبد رغم يقينه بأنه لن يُخلَّد ولن يصل إلى مرتبة الأبدية ، فإن آمنت بالحكمة من الأشياء كان شقاؤك ذا طعم ومذاق أنت وحدك من تشعر بحلاوته، وإن فقدت إيمانك بمنطق الأشياء صرت كفأر صارع الأمواج حتى يحين وقت لفظه على شاطئ كان يظن أنه شاطئ النجاة .

ما أقدس أن تؤدي أمانة استودعها أحد عندك، لكن الصعب في الأمر أن تُلقَى علي كاهلك وضميرك عنوة دون أي اختيار، لم أختارولكنني اؤتمنت، وحشاني أن أكون من الخائنين .

بعد صراع مع التفكير والسهد كسهد العاشقين في غيابات الليل لم يمض يومان على ما آل بي ، أنجزت في يومي هذا بعض الأشغال على غير المعتاد وعدت إلى بيتي، تناولت الغداء مع زوجتي وابنتي وبدلت ملابسي، وقبل الثالثة مساءً تحركت نحو كفر العقايمة ، بعد السؤال علمت أن المسافة تزيد على ثلاثين كيلو مترًا بقليل ، في سنوات مضت كانت أربعون دقيقة كافية للوصول ولكن ازدحام الطرق وسوء حالتها والمطبات وتغير سلوك البشر قد مدها إلى ثمانين دقيقة . لكن لا بأس ها أنا قد وصلت، أدركت ذلك حينما وجدت لافتة رُفعت على عمدان حديدية كتب عليها : كفرعبدالسلام كامل ... مع تحيات النائب سعدون العامري .

عَبَرتُ المياه الجارية بواسطة ذلك الكوبري وصرت فعلياً على أرض الكفر، ما لم يفارق شغفى حتى وصلت هو ذاك البيت الذي عاش فيه هيكل ، كيف تكون سراي النابلسي؟ وبالفعل سألت عنها بعض الصبية في جانب من الطريق كانوا يلتفون حول ترابيزة بلياردو فأجاب أحدهم يبدو في السادسة عشرة أنها قد هُدمت واشتراها ذاك النائب القادم من أوربا و أقام بدلاً منها فيلا بحمام سباحة و"مَضيفة" واسعة ترقي لأن تكون قاعة استقبال .

أشار الصبي إلى أخيه الذي لم يجاوز العاشرة أن يصحبني إلى فيلا العامري، فتحت له باب السيارة، سرنا في خط مستقيم لمسافة حوالي أربعمائة متر فهلت رائحة الياسمين تهب من فوق أسوار الفيلا ، شكرت الصغير فباغتني (هات جنيه) فناولته خمسة فهلل وفر.

الفخامة قد تخدعك أحياناً إن كنت قليل الحيلة أو ممن يطغى عندهم البصر فيصيب البصيرة ، أما لو كنت غريباً فلا حرج ولا إثم عليك فالجهل أحياناً يكون رحمة .

حارس الفيلا استفسر مني وكأنه استجواب، دخل لدقيقة ثم عاد مُرحّباً بي وأدخلني استقبال الفيلا ، دقيقتان وأتى سعدون العامري نائب الدائرة صاحب البشرة الخمرية، قامته فارعة يرتدى عباءة سوداء ومن تحتها جلباب بلدى فخم وعلى الرغم من أنه لم يرتدِ بزة كالتى يتهندم بها فى البرلمان أوالحفلات والسهرات إلا أن هيئته تجعله يبدو وكأنه سفير للنوايا الحسنة .

طلبت منه جمع الناس من أنحاء الكفر لأمر هام وخطير، لكنه أقنعني بلسان موظف علاقات عامة متحذلق أنه يكفي جمع كبار العائلات ورؤوسها فاقتنعت. لم تمض عشر دقائق إلا وكان بيننا عشرة رجال بالإضافة إلى جنابه.

لم أستغرق وقتاً أكثر من عشر دقائق أخرى لأزيح الجبل الذي أثقل روحي وبدني في اليومين الماضيين ، الحوار كان هادئاً على غير ما توقعت وانتهى إلى أن هيكل كان قد اختل عقله فى آخر زمنه في الكفر بل جوّد أحدهم أن ما كُتب بالفعل بخط هيكل ولكنه لم يحدث واختلقوا روايات عن مصائب أحدثها هيكل في سنواته الأخيرة في الكفر، هذا يحكي وآخرون يصدّقون على روايته ، أما عن وثيقة الزواج فرد النائب (الفوتوشوب يعمل أي حاجة) .

سار الحوار على لحن الرفض، جميعهم جاهدوا في إقناعي بكيدية الأمر، تحدثوا كثيراً بينما كانت كلمات سعدون قليلة وعلى استحياء .

مضت نحو ساعة والنصف أحسست بشيء لا أعرفه ، هداني عقلي إلى حيلة، أظهرت لهم الاقتناع التام وأنني أعطيت الموضوع أكثر من حجمه ولكن الأمانة هي التي دفعتني وأبديت حسرة على يومي الضائع وأشغالي التي أهملتها . تعانقنا كما لو كنا على معرفة منذ عشر سنين .

عدت لعبور الكوبري مودعاً الكفر ، مضيت بسيارتي حتى أقرب مدينة فوجدت مغسلة سيارات فأخبرت العامل أن يعتني بها جيداً (عاوزها عروسة بتبرق) وسآخذها بعد ساعة أو ساعتين على أقصى تقدير وأخذت

رقم هاتفه الجوال ، بالقرب من المغسلة استأجرت (توك توك) وعدت مرة أخرى إلى كفر العقايمة .

الساعة الآن تدق التاسعة ، دخلنا الكفر من المدخل الجانبي في البداية هذه من مهارات التوك توك (اختصار المسافات) بعد خطوات كان هناك مقهى أقصى اليسار، استأذنت السائق أن يسألهم عن بيت عم إبرآم فوصفوه ، سرنا وإذ بالفيلا التي كنت بها من ساعة تقريباً في طريقي على اليسار حتى وصلنا الكوبري فلم نعبره هذه المرة وانتحى بنا السائق يساراً حتى وصلنا بيت العم إبرآم ، نزلت فوجدت باب غرفة من درفتين إحداهما مفتوحة والأخرى منغلقة، ألقيت عليه السلام فرده فطلبت الحديث إليه على انفراد فاستجاب ، سائق التوك توك في انتظاري ، دقت الثانية عشرة وقُضي الأمر وودعت إبرآم بعد أن قص لي رواية مليئة بروث البشر.

مضى أكثر من شهر على تلك الواقعة، حياتي عادت سريعاً إلى ديناميكيتها الأولى ، ذات يوم مررت بجوار سور كلية التجارة هاتفني عقلي بأن أخبر العم بدير برواية العبر وإحدى سقطات البشر ، أليس هو من باع لى هذا الكتاب ! الرصيف خالٍ حيث يجلس الرجل، سألت عنه أخبروني أنه منذ شهر مضى (فص ملح وداب) .

تمت بحمد الله وتوفيقه ...

هاني خليفة ،،

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017